محمد الهادي زيان

من أجل طرح جديد لقضايا [illegible]

منشورات
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
طرابلس

من أجل طرح
جديد لقضايا
علم التّوحيد

الطبعة الأولى
1427 من ميلاد الرسول ﷺ
1998 إفرنجي



هاتف رقم 4800730 - 4800294 - بريد مصور 4800293 - ص.ب. 2662
طرابلس - الجماهيرية العظمى

محمد الهادي زيّان

من أجل طرح جديد لقضايا علم التّوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، أما بعد فإن حركة التحديث والتجديد سنة من سنن الله تعالى في مجال المتغيرات الوجودية، لذلك رأينا كل شيء في دنيا المتغيرات يتطور ويتجدد. وينزع عنه ثوب السلفية ويرتدي لباس الحداثة والعصرية. وبهذا يحقق الإنسان مراد الله عز وجل الذي أمرنا بالتحديث والتطوير فقال جل جلاله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: 9 و 10] ولنركز على قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أي اصنع صناعة أجود وأفضل من صناعة آبائك أي جدد وطور صيغ متغيرات وجودك.

ومن المتغيرات أساليب ومناهج طرح الثوابت الإيمانية والقيمية والعلمية. هذه الصيغ التي يتحتم تجديدها حتى تتلاءم مع

مستجدات الحياة تلاؤماً يجعلها تحتل مواقعها القيادية وتؤدي وظائفها الريادية.

واستجابة لهذا المطلوب الحضاري رأينا معتنقي كل الأيديولوجيات يكرسون الجهود ويرصدون الأموال وينفقون الأوقات من أجل تطوير منهجيات وأساليب وصيغ طرح فكرهم، حتى يكتسب قوة القدرة على النفاذ إلى القلوب والاستحواذ على العقول. ولقد نجحوا في تحقيق أهدافهم نجاحاً مكنهم من غزونا وإيقاع الهزيمة بنا واجتثاث العديد من أبنائنا من منابتهم الإسلامية.

ومن المؤسف أن لا نرى القادرين من أبناء هذه الأمة يتحركون لمنافسة الأعداء ومجالدتهم بسلاح التحديث والتجديد[1] لذلك وضعت هذه الرسالة بجهد فردي محدود لا لملء الفراغ ولا لتلبية الحاجة لأنني لا أدعي القدرة على ذلك. وإنما لإثارة القضية لعل القادرين من ذوي الهمم ينهضون بما يحقق الآمال ويعيد إلى هذه الأمة سالف ثباتها على ثوابتها واعتصامها بدينها. ويعيد إليها حصانتها، ومناعتها وقدرتها على الغزو والفتح للتنوير والتعمير لا للاحتلال والتدمير، استجابة لأمر الله عز وجل: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ

(1) لم يقع بين يدي مؤلّف توخّى فيه صاحبه تحديث طرح قضايا العقيدة إلا كتاب «توحيد الخالق» للشيخ عبد المجيد الزنداني وزميلين له وكتاب «عقيدة المؤمن» للشيخ «أبو بكر جابر الجزائري» مع تفاوت ملموس في نسبة تحديث الطّرح.

بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: 125].

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

المؤلف

محمد الهادي زيّان

خريج الجامعة الزيتونية

ومتفقد التعليم الإبتدائي

بالمدارس التونسية

مدخل إلى علم التوحيد

قد يعترض بعضهم على إطلاق كلمة «علم» على العقائد المتعلقة بمجالات الغيب، الذي لا يخضع إلى وسائل العلم وأسبابه ولا يقع تحت طائلتها، ذلك أن الغيبيات لا تدركها الأسماع ولا الأبصار ولا سائر الحواس، ولا تمتد إليها يد التجارب المعملية ولا التحاليل المخبرية، والذي تواضع عليه الناس يقضي بأن كل ما يقع خارج دائرة الحس والاختبار والتحليل لا يمكن أن يسمى علماً. إذ أن العلم هو حصيلة المشاهدة والملاحظة والاختبار والتجرية والمقارنة فالاستنتاج العقلي فالحقيقة العلمية.

ولعلنا نستأنس في هذا الصدد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36]، لكن الشيء الذي يجب أن لا يفوتنا هنا هو أن ما نستنتجه في مخابرنا ومعاملنا وحقول تجاربنا ومجالات ملاحظاتنا ونسميه علماً، هو في الحقيقة علم نسبي، وليس علماً مطلقاً، لأننا

لا نستنتج حقائق الأشياء، وإنما فقط نستنتج ظواهرها وآثارها. فالذرة والكهرباء والجاذبية هذه المكتشفات أحدثت ثورة في حياة الإنسان بينما لا يزال هذا الإنسان يعترف بجهله لحقائقها، ويقر بأنه لم يدرك سوى آثارها، ومظاهرها، ومع ذلك فالإجماع منعقد بين أبناء الجنس البشري على تسمية هذه الآثار والظواهر علماً، لأن العلم عندهم ما أثبتته الأدلة القطعية والبراهين اليقينية بصفة احاطية تجعل الإنسان مغموراً في أنوار الحقيقة المعرفية، الأمر الذي يجعل إنكار هذه الحقيقة إنكاراً للعقل وإنكاراً للوجود ذاته.

ومن هذا المنطلق جاءت منظومة العلوم الصحيحة، أي العلوم اليقينية التي ثبتت صحتها بالأدلة القطعية ثم ثبت بقاؤها واستمرارها وامتناعها عن التحول أو التبدل والتغير على مر الدهور والعصور، وعلى اختلاف الأحوال والأوضاع والظروف، ومن ثم سميت هذه الحقائق العلمية بالثوابت والمسلمات. فعندما نقول: ($2 \times 2 = 4$) نكون قد عبرنا عن حقيقة علمية ثابتة وعندما نقول (م^2 ص ـ ماء) أي ذرتان من الهيدروجين مع ذرة من الأكسوجين يكون الناتج ماء نكون قد عبرنا أيضاً عن حقيقة علمية ثابتة، وعندما نقول: (المعادن تتمدّد مع الحرارة وتتقلص مع البرودة نكون أيضاً قد عبرنا عن حقيقة علمية ثابتة.. الخ).

ومن هنا جاءت كما أسلفت منظومة الثوابت العلمية والتي سميت بالقوانين العلمية وقد سماها الله عز وجل بالسنن فقال

سبحانه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: 23].

ومن كل ما أسلفت يتبين لنا أن العمود الفقري للعلم كله أساسه الإيمان، ولولا الإيمان لتبخّر معظم علم الإنسان، ذلك أن حقائق الأشياء التي عزّ إدراكها بل واستحال في كثير من الأحيان ـ لو تشبث بها الإنسان وقال «لن أتقدم خطوة إلا بعد أن أحيط بها علماً». أعني لو ارتكب الإنسان هذه الحماقة لبقي حتى اليوم قريباً من عصره الحجري متخلفاً جاهلاً، لكنه لم يفعل ذلك وإنما اكتفى من معرفة حقائق الأشياء بمعرفة آثارها، التي تدل دلالة قاطعة لا يتطرق إليها ريب على وجود تلك الحقائق وعلى فعالياتها التي تعكسها آثارها، فاعترف بوجودها اعترافاً إيمانياً في جوهره علمياً في مظهره، ذلك أن كل شيء في هذه الحياة يكون بحسب أهله. فالغني عند أهل السلطان ليس هو الغني عند عامة الناس، لأن السلطان الغني يملك المليارات والعامي الغني يملك الآلاف، وكلاهما ينعت بالغني. كما أن الثقافة عند البدو ليست هي الثقافة عند أهل الحضر، فالبدوي المثقف هو الذي يقرأ ويكتب وكفى، أما الحضري المثقف فإنه لا بد أن يكون حاملاً لأعلى الشهادات العلمية. وعلم الإنسان بحسب طاقته. وبما أن طاقته لا تتسع إلى إدراك حقائق الأشياء فإن علمه يتحقق بمجرد إدراك آثارها، إدراكاً أحاطياً بقدر الإمكان، وهل هناك علم آخر؟ نعم إنه علم الحقائق وقد استأثر به الله عز وجل، لذلك فعلمنا بحقائق الأشياء كالروح والعقل والكهرباء والذرة والجاذبية وما

إلى ذلك قائم على أساس الإيمان بوجودها إيماناً تحتّمه آثارها التي أحاطت بنا وغمرتنا، حتى صرنا ملزمين بالاعتراف بها والاقرار بثبوتها، والذي ألزمنا بذلك هو عقلنا الذي إن اعترفنا به اعترفنا بما اعترف هو به من حقائق الوجود، وإن أنكرناه أنكرنا وجودنا وكل الوجود.

النتيجة التي أريد أن أخلص إليها تتمثل في الإقرار بأن الإيمان هو أساس العلم، ولذلك فإن العلم هو طريق الإيمان، ومن ثم جاءت قمة العلم وقمة الإيمان متمثلتين في تعانق العلم والإيمان، تعانقاً أفضى ويفضي إلى تسليم زمام القيادة إلى الإيمان، حتى تتوازن وتستقيم حياة الإنسان.

أليس في كل ما أسلفت اقناع للمعترضين على استعمال كلمة «علم» في المجال العقيدي الإيماني وإذا كان هؤلاء في حاجة إلى مزيد من البراهين المؤيدة لعلمية الإيمان فإني أتلو عليهم آيتين من آيات القرآن تدلان على أن العلم والإيمان متلازمان لا ينفصلان، على أن الإيمان الحق هو الإيمان العلمي، أي القائم على أساس البراهين العلمية، ومن ثم يصبح الإيمان علماً، يقول الله عز وجل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18] ويقول سبحانه: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: 6].

وهنا نجد أنفسنا في حاجة إلى تعريف الإيمان حتى نتعامل مع ما نعرف، فما هو الإيمان.

الإيمان هو الإقرار الحتمي بوجود الشيء بعد العجز المطلق عن الوصول إلى حقيقته رغم الجهود المضنية المبذولة في هذا الصدد، على أن هذا الإقرار لا يتم إلا بعد أن يجد الإنسان نفسه مغموراً في فيض الأدلة والبراهين التي تنطق بوجود ذلك الشيء. فعلماء الأرض وجدوا أنفسهم مغمورين بحقيقة وجود الجاذبية، ولما بحثوا عن هذه الحقيقة ليعرفوها معرفة عينية عجزوا ولم يتمكنوا إلا من معرفة آثارها، فاعترفوا بوجود تلك الحقيقة التي غمرتهم أدلة وجودها من كل أقطارهم، وبذلك كان اعترافهم هذا إيمانياً، لأن الإيمان ليس شيئاً آخر زائداً على الاعتراف بوجود ما غمرتك أدلة وجوده وعجزت عن الوصول إلى حقيقته.

نضرب المزيد من الأمثلة في هذا الصدد لتزداد الحقيقة العلمية تجلياً ووضوحاً، فالحياة مثلاً نعترف جميعاً بوجودها فينا وفي الشجرة الخضراء، والطائر المحلق، والشاة السارحة، والنبتة النامية.. الخ ولا يستطيع أي واحد منا أن ينكر وجود الحياة فيه أو في أي شيء حيّ حوله، لأنه إن فعل ذلك أنكر عقله وبالتالي أنكر وجوده، وأخيراً يجد نفسه متّهماً بالجنون. فالاعتراف بوجود الحياة فينا أمر حتمي لا يحتمل التردد، وقطعي لا يقبل الشك، وثابتي لا يقبل التغيير، ومطلق لا يقبل النسبية، ومع ذلك فإنّه لا يوجد أي واحد من البشر فوق كوكبنا الأرضي يعرف من حقيقة الحياة شيئاً. يقول البروفسور «كويسي موريسون» في كتابه «الإنسان لا يقوم

وحده» (ص88) تحت عنوان ما هي الحياة: «وأما ما هي الحياة، فذلك ما لم يَدْرِهِ إنسانٌ بعد».

لو عرف الإنسان ما هي الحياة لبادر بصنع نماذج منها، ولأصبحت مصيبة الموت في ذمة التاريخ، ولصارت الأرواح تباع في الصيدليات في معلبات يقتنيها أصحاب الحاجة من الشيوخ الفانين والمرضى الهالكين، لكن الله عز وجل قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

وما قيل عن الروح يقال عن العقل أيضاً إذ أننا مجمعون على الاعتراف بوجوده فينا، وفي الكثيرين من الذين يعيشون حولنا من بني الإنسان، لكن إذا سألنا أي إنسان عن حقيقة العقل نجده أميّا لا يعرف من أمره شيئاً، وكل معارفه عن العقل تقف عند حدود معرفة آثاره ومظاهره، ولو عرف الإنسان العقل لصنعه أيضاً وأنقذ الملايين من فقدانه أو ضعفه لكنه لا يعرف عنه شيئاً يتعلق بحقيقته.

إذن فنحن نعترف بوجود الحياة وبوجود العقل عن طريق الإيمان العلمي، لا عن طريق المعرفة العلمية، وهكذا لو تتبْعنا أمهات معارفنا لوجدناها قائمة على أساس الإيمان العلمي، وهو الإيمان المتولد عن فيض البراهين والأدلة التي تغمر الإنسان وتشهد بوجود حقيقة الشيء.

فإذا طبقنا هذا المبدأ العلمي تطبيقاً سليماً ومجرّداً وجدنا أنفسنا مغمورين في زخم فيوض الأدلة والبراهين القطعية التي تنطق بوجود

خالق لهذا الكون، يتصف بالحياة الأزلية والأبدية وبالقدرة المطلقة والإرادة النافذة والعلم المطلق والحكمة المطلقة وغيرها من صفات الكمال، كما يتصف بالتفرّد والوحدانية. ذلك أن كل شيء حولنا في هذا الكون ينطق بأن له خالقاً موجوداً متصفاً بكل صفات الكمال المطلق، ذلك أن منطق العقل السليم يقتضي أن لكل مخلوق خالقاً، كما يقتضي أن وراء كل علم عالماً، ووراء كل قدرة قادراً، ووراء كل إدارة مريداً، ووراء كل حكمة حكيماً، ووراء كل حياة حيّا، وأن استمرار هذا الكون العجيب الزاخر بمعاني ومباني الإبداع والتناسق والانتظام والإحكام لا يمكن أن يكون إلا إذا كان أمره بيد سلطان واحد، وحاكم واحد، ومدبر واحد، وقيّم واحد. كل هذا يحتم على الإنسان المتجرّد المخلص لنفسه الصادق مع وجوده، يحتم عليه أن يعترف بوجود الله عز وجل، وأن يعترف بكل صفات الكمال التي يتصف بها، وبالتالي يخضع لكل مقتضيات هذا الاعتراف خضوع المؤمنين الصادقين الذين قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، وأخيراً إذا قلنا أن كل القوانين الرياضية والفيزيائية والكيميائية تنتظم في هذا المسار ـ أعني ـ مسار الإيمان العلمي وليس بالضرورة أن تنتظم في هذا المسار بجزئياتها وإنما بأصولها وكلياتها لأن من الجزئيات ما أتاح الله تعالى كشفها للإنسان فصار يعرفها معرفة علمية احاطية، ثم إذا نظرنا إلى تعامل هذا الإنسان مع مقتضيات مسلّماته الإيمانية العلمية وجدناه يتعامل مع تلك المقتضيات بمنتهى الانفتاح والتقبّل والاستسلام، الأمر الذي مكنه

علوماً إنسانية، وبذلك تصبح عقيدة التوحيد تدرّس كما تدرّس مادة الحساب والكيمياء والفيزياء، ويصبح تلقّيها عن طريق اليقين الذي لا يقبل النقاش لأن المُسَلَّمَاتِ تُفْهَمُ ولا تُنَاقَشُ، ومن ثم تصبح مقتضياتُ العقيدة مُسَلَّمَاتٍ أيضاً، لأنّ ما يقتضيه المُسَلَّمُ مُسَلَّمٌ أيضاً. إذ أنّ قَبُولَ المُسَلَّمِ وَرَدَّ مقتضاه هو في الحقيقة رَدٌّ للمُسَلَّمِ نفسه، والاعتراف بالله الواحد ثم إنكار مقتضى من مقتضيات هذا الاعتراف هو في الحقيقة نقض للاعتراف نفسه، فإذا سلكنا مع أبنائنا هذا المسلك كان رجاؤنا كبيراً في أن تستعيد هذه الأمة مقوّمها الإيماني بمقتضاه الإسلامي، استعادة عملية ميدانية لا شعارية مظهرية، وبذلك ـ إن شاء الله ـ نحقق لأمّتنا وحدتها وتماسكها وعزّتها وقوّتها ونصرها ورخاءها لأن القيم الرفيعة لا يحرسها ويطبّقها إلا شعب اجتمعت كلمته، والتأم شمله، وتلاحمت قلوبه، وتآلفت أرواحه فصار كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وصار كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، ولا توجد قوة تحت الشمس تستطيع التأليف بين القلوب، وجمع الكلمة، وتوحيد الصف، سوى الإيمان بالله عز وجل، وبكل ما يقتضيه هذا الإيمان من قيم عليا تجعل الناس يعيشون لها وبها. يقول جل جلاله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الأنفال: 62 و63].

فمتى نعمل على تحقيق هذا المطلوب الذي به وحده نحقق

من اكتساب ثروة معرفية استطاع ميدنتها واستخدامها في تطوير وتجديد صيغ الكثير من متغيراته المادية، التي سخّرها الله له تسخيراً وذللها له تذليلاً.

ومن هنا أقول «إن الإيمان بالله حسب هذه الصيغة العلمية يقتضي الإيمان بكل مشتقات وتوابع هذا الإيمان، مثل الإيمان بالرسل والكتب واليوم الآخر والملائكة والقدر. كما يقتضي الاستسلام لكل مقتضيات هذا الإيمان استسلاماً يحقق أبعد أبعاد الإسلام، عن طريق تطبيق شرائع القرآن وسنة محمد ﷺ خير الأنام.

ومن كل ما أسلفت أريد أن أختم باستخلاص حقيقة ثابتة يقينية تتمثل في أن العقيدة علم وأن هذا العلم يحتل أعلى درجات العلوم الصحيحة، أي أنه يأتي من حيث الصحة قبل الحساب والكيمياء والفيزياء وغيرها مما اصطلح على تسميته بالعلوم الصحيحة، ويقصد بذلك العلوم اليقينية القطعية المطلقة، التي لا ظنية ولا نسبية فيها. وعلم العقيدة يقف على رأس هذه العلوم وفي مقدمتها فهو العلم الذي لا يتطرق إليه شك ولا تخالطه نسبية فكما تقول: (2 + 2 = 4) تقول: (هذا الخَلْقُ وراءه خالق، وهذه الحكمة وراءها حكيم، وهذا العلم وراءه عالم، وهذه القدرة وراءها قادر، فمن هو؟ هو الله الذي لا إله إلا هو). وإذا كان الأمر كذلك صار لزاماً على أنظمة التربية والتعليم في البلاد الإسلامية أن تدرج علم العقيدة ضمن قائمة العلوم الصحيحة اليقينية، وأن تسحبه من قائمة العلوم الظنية، التي تسمى

لأنفسنا ولأمتنا الحياة وبدونه نبقى مطمورين تحت أنقاض الممات.

أسأل الله أن يلهمنا رشدنا وييسر لنا أمرنا وينصرنا على أنفسنا حتى ننتصر على أعدائنا.

منزلة علم التوحيد

إن علم التوحيد أهم العلوم وأوكدها، لأنه يبحث في أهم القضايا التي تتعلق بالوجود الإنساني ولأنه يمثل أصل الدين وأساسه، وعلم التوحيد هو علم الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع.

والإنسان لا يكون مسلماً ولا مؤمناً إلا بمعرفة علم التوحيد معرفة تظهر آثارها في أقواله وأفعاله وجميع أحواله.

إنه العلم الذي يعرّف الإنسان بربه عن طريق معرفة أسمائه وصفاته وأفعاله معرفة يقينية، ويعرّفه برسول ربه ومعجزاته ورسالته، ويعرفه بالحكمة من وجوده على الأرض، ويعرفه بالحلال والحرام، وبتأثير ذلك كله على المستقبل الذي يسير إليه بالموت.

ولقد أرسل الله تعالى الرسل إلى عباده ليعرفوهم بربهم، وليبلغوهم عنه منهجه الذي ارتضاه لهم وأعدّه ليضبط حركتهم في الحياة، وجعل منطلق كل رسول في دعوته ورسالته معرفة الله عز وجل، فمن عرف الله عرف رسله، ومن عرف رسل الله عرف

رسالاتهم، ومن عرف رسالاتهم استقبل مضامينها استقبالاً إيمانياً، واستجاب لمقتضياتها استجابة انطباقية، وتوجه بكل فعل من أفعاله إلى الله دون سواه.

1 ـ **فعلم التوحيد**: علم يمكّن الإنسان من امتلاك عقيدته امتلاكاً ثابتياً قائماً على أساس أدلة عقلية ثابتة لا تقبل التبديل ولا التغيير ومطلقة لا تقبل النسبية.

فبدارسة هذا العلم يخرج المسلم من سطحية التقليد الظلامي إلى عمق الامتلاك النوراني.

وهذا هو المطلوب من المسلم فيما فرض الله عليه من الفرائض فعندما قال ﷺ: **«طلب العلم فريضة»** لم يخصص علماً دون علم، وإنما دعا إلى تعلم كل علم عيني أو كفائي، والعلم العيني هو الذي يجب على كل إنسان بعينه، والعلم الكفائي هو الذي إذا تعلمه البعض سقط عن الباقين.

فعلم التوحيد مثلاً علم عيني وعلم الفلاحة علم كفائي.

وكل علم عيني لا يجوز فيه التقليد ولا الاتباع، لأنّه ما كان عينياً إلا لكونه لازماً لكل فرد بعينه، وما دام لازماً لكل فرد بعينه فلا يكفي أن يتعلّمه البعض ليتّبعهم الباقون. وبهذا يكون علم التوحيد واجباً على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمه ومن لم يتعلمه فهو آثم ومعرّض لخطر فادح جسيم قد يُؤدِي بحياته الآنية ويدمّر حياته المستقبلية.

ولهذا فإن الله تعالى شدد النكير على الاتّباعيين الجامدين

المقلدين في أمور لا يصح فيها الاتباع والتقليد كأمور العقيدة. فقد قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104].

وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: 21].

وقال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ۞ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22 و23].

وبهذا يصبح علم التوحيد علماً يمكّن الإنسان من امتلاك عقيدته امتلاكاً يقينياً يؤهله لحملها والدفاع عنها والدعوة لها وبذلك تكون منزلة علم التوحيد بين العلوم كمنزلة الرأس والقلب بين أعضاء الجسد، لأنه علم الريادة والقيادة. فهو العلم الذي يدفع إلى ارتياد سائر مجالات العلوم، وهو العلم الذي يقود كل العلوم ويوجهها إلى غاياتها الصحيحة.

أنتم تعلمون أن كل المخلوقات الكونية في حاجة إلى قيادة توجهها لأداء وظائفها البنائية، وتحول بينها وبين التورط في

انحرافات هدمية تخريبية، فالأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبحار والجبال وكل المخلوقات تحتاج إلى قيادة حتى تسير سيراً منتظماً، وتؤدي وظائفها الكاملة دون فساد أو إفساد. فمن يقود هذه الكائنات كلها؟ الله جل جلاله (الذي أعطى كل شيء خلقة ثم هدى) ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: 1 - 3] فهو سبحانه يقود مخلوقاته بواسطة منهج تشريعي أعده وهدى تلك المخلوقات إلى اتّباعه اتباعاً خطّياً دقيقاً.

ومنظومة العلوم هي من بين الكائنات الحية. علم الحساب وعلم الكيمياء وعلم الطبيعة وعلم طبقات الأرض وعلم النفس وعلم البيداغوجيا وعلم الفلك وعلم التاريخ والجغرافيا... كل هذه العلوم في حاجة أكيدة إلى قائد وموجّه ومرشد ومعلم. لماذا؟ لأنها جميعاً سلاح ذو حدين، يمكن أن ينفع ويمكن أن يضر، يمكن أن يبني ويمكن أن يهدم، يمكن أن يزرع الرّخاء والإخاء والوفاء، ويمكن أن ينشر الخصاصة والعداء والخيانة... إلخ.

لذلك احتاجت هذه العلوم إلى علم يقودها إلى صنع الخير، ويوجّهها إلى البناء والتعمير ويرشدها إلى ما ينفع الناس.

فما هو العلم الذي يمكن أن يؤدي هذه الوظيفة؟ إنه علم التوحيد. علم توحيد الخالق الذي يعرّف الإنسان بربه، وإذا عرف ربه عرف رسول ربه، وإذا عرف الرسول عرف الرسالة، وإذا عرف الرسالة عرف المنهج، وإذا عرف المنهج استقام، وإذا استقام حقق المطلوب البنائي الاسعادي.

انظروا كيف جعل الله عز وجل العلم محكوماً بقوتين معدّلتين تحفظان عليه توازنه واستقامته. فقد قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

فجعل العلم بين التزكية والحكمة يعني أنه مُرَاقَبٌ وَمُوَجَّه من قبل قلوب وعقول طاهرة زكية، ومستخدم من قبل عقول حكيمة حصيفة تضع الأشياء في مواضعها. ثم انظروا إلى منهج الله كيف يقود العلوم ويوجهها نحو ما ينفع الناس ويمكث في الأرض. يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: 9 و 10].

ولننظر الآن عندما تخلى الدين عن دوره القيادي ما الذي حدث؟ لقد طغت العلوم وبغت واستكبرت في الأرض وعلت. وإذا كان فرعون قد علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين، فإن العلوم المعاصرة الآن ترتكب نفس الجرائم وزيادة، وها أنتم ترون القهر والإذلال واغتصاب الأراضي والاستيلاء على الثروات وتقتيل الآلاف وتدمير المدن والقرى وزرع الرعب والشقاء. كل هذا يتم من أجل نهب الثروات وإبقاء الضعفاء ضمن مناطق النفوذ. ومع ذلك فهم يرفعون شعارات تحرير العبيد وما هم بمحررين ولكنهم مستعبدون. لأن تحرير الأفراد واستعباد الشعوب أخطر وأفظع من تحرير الشعوب واستعباد الأفراد.

كل هذه المآسي تقع في غياب الدين، أعني في غياب القيادة الرشيدة للعلوم المستكبرة العنيدة. وهذا ما جعل البروفوسور «مارشال جونسون» مدير أكاديمية العلوم بجامعة فلادلفيا بأمريكا يقول: «إن عهداً جديداً بدأ نوره ينبثق وهو يبشر بسعادة البشرية ويتمثل هذا النور في التقاء العلم والدّين هذه الأيام وعما قليل سيتسلم الدين قيادة العلم ووقتها تكتمل سعادة أهل الأرض».

وهكذا ترون أن هذا العلم يحتل المنزلة الأولى والمطلقة في سلم درجات العلوم. لأنه العلم الذي يمكّن من توظيف بقية العلوم إلى ما فيه خير الإنسان وسعادته. ومن أجل ذلك كان تعلمه فرض عين على كل مسلم ومسلمة. ومن تركه متهاوناً عرضّ نفسه لغضب الله عز وجل ومن غضب عليه الله أذله وأخزاه وأتعسه وأشقاه.

2 ـ **التوازن والتوافق**: إن مادية الإنسان تحيطه بنداءات ملحة وصارخة تدعوه إلى إشباع حاجات الجسد المتعددة والمتجددة. كما تدعوه إلى إشباع حاجات غرائزه المركبة فيه. والتي جبلت على نداء ملحاح متواصل، وكلما حاولت إشباعها وإسكاتها ازدادت جوعاً وصراخاً لأنها لا تشبع. يقول رسول الله ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى له ثالثاً ولا يشبع ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب**» (متفق عليه).

والإنسان إذا انساق وراءه تيار شهواته وغرائزه انحط إلى مستوى أسفل وأدنى من مستوى الحيوانات لأنه يصبح عبداً مملوكاً لشهواته

وغرائزه، الأمر الذي يطمر فيه نورانية روحه وشفافية نفسه، ويقضي فيه على دوره القيادي في الحياة، ويجعله تابعاً ذليلاً لأهوائه يعبدها ويلهث دائماً وراءها. يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 43 و44].

والإنسان لا يقوى على عتق رقبته من أسر جسده وغرائزه إذا عرف ربه فآمن به وبرسله وكتبه وتلقى منهجه واستجاب إلى مقتضياته وبذلك فقط يصير الإنسان إنساناً صالحاً لخلافة الله تعالى في الأرض وتعميرها وملء فضائها بالسعادة والآخاء والوفاق والرخاء.

المراحل التي مر بها علم التوحيد:

1 ـ **المرحلة القرآنية**: التي تعتمد على أخذ الدليل من آيات الله المبثوثة في الكون وعلى إيقاظ الأحاسيس الفطرية والمشاعر الوجدانية وفي هذه المرحلة وبهذه الوسائل بنى محمد ﷺ في قلوب المسلمين الأولين عقيدة أثبت من الجبال الراسيات استطاع أصحابها أن يبنوا أعظم أمة عرفها تاريخ البشرية فكانت بحق خير أمة أخرجت للناس.

قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

2 ـ **المرحلة الفلسفية الجدلية**: في هذه المرحلة تدخلت فلسفات

الشعوب التي دخلت في الإسلام واختلطت بالمسلمين، وبدا المفكرون يفلسفون العقيدة ويمنطقونها ويخضعونها لأقيستهم المنطقية وحججهم الفلسفية وتعقيداتهم الجدلية، حتى أضاعوا براءتها وفوتوا على المسملين صفاءها وبساطتها، وأهالوا عليها الكثير من المعميّات فصارت مرتعاً للعقول الجامحة والألسنة والأقلام الطامحة، وبذلك أصبحت العقيدة قابلة للمناقشة والجدل الأمر الذي جعلها تتحول من مقدمة العلوم الصحيحة إلى مقدمة العلوم النسبية، ومن ذلك التاريخ حتى يومنا هذا ومناهج التربية والتعليم في البلاد الإسلامية تحشر علم التوحيد ضمن ما يسمى بالعلوم الإنسانية، أي العلوم التي كل مكوناتها نسبية، والنسبية كما تعلمون تعني الظنية، والظنية تقف على طرفي نقيض مع العقيدة، لأن العقيدة يقين قطعي مطلق أو لا تكون.

ولقد كان من نتائج هذا التحول الانحرافي أن انقسم المفكرون إلى مذاهب وشيع، وانقسم أتباعهم، وانقسمت الأمة كلها وتمزق شملها. وما ذلك إلا لأن العقل البشري أراد أن يتدخل في مجال الوحي، والوحي فوق العقل، فإذا تعسّف وأصرّ على التدخّل فيه أهلك نفسه وعرّضها للتّلف.

3 ـ **مرحلة التقليد والاتباع**: وهي المرحلة التي ضعفت فيها الأمة الإسلامية وضعفت فيها همم الرجال وتخلوا عن الإبداع والعطاء وركنوا إلى التقليد والاتباع والاجترار، فعكفوا على الكتب التي

ألفها أجدادهم وأقاموها على فكرهم الفلسفي المعقد، الأمر الذي ما زاد الأواخر إلا ضعفاً وهزلاً وضياعاً. فازدادت العقيدة ذبولاً بين أيديهم، وصارت أوهى وأضعف من أن تقوى على حمل رسالة الإسلام بمطلوباتها البنائية القيادية الريادية، وهكذا صارت العقيدة عند المسلمين عقيدة تقليد واتباع رغم أن الإسلام نهى عن التقليد والاتباع خاصة بالنسبة للذين يقدرون على إقامة الحجة ورفع البرهان، وبناء إيمانهم على اليقين العلمي، وكلنا يعلم أن الله تعالى رد على المشركين والكافرين موقفهم التقليدي الاتباعي السلبي، الذي صدهم عن الاصغاء إلى صوت الحق، ومنعهم من رؤية النور الذي جاء به رسول الله ﷺ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

4 ـ **المرحلة الرابعة مرحلة عودة الوعي**: واستفاقة العقول وانفتاح القلوب وانتشار الصحوة الإسلامية انتشاراً مكّن من تغيير ما بالنفوس انطلاقاً من تغيير بنية الإيمان التي تملأ القلوب، فقد استفاق المسلمون على أنوار العلم الحديث، تكشف لهم خبايا وأسراراً تلامس شغاف قلوبهم، وتحرك سواكن عقولهم، فيجدون فيها ما يعمّق إيمانهم ويجذّره ويقيم بناءه على حجج علمية وبراهين يقينية ثابتة.

وإن ما لا يحصى من الحقائق العلمية التي انكشفت الآن أشار

إليها القرآن إشارات صريحة دقيقة مباشرة، الأمر الذي يعكس اهتمام القرآن بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، نظراً يسمح بفهم كثير من الأسرار ويحقق للإنسان بُعْدَيْنِ عظيمين هما بُعْدُ الاستفادة من المدلولات لترسيخ عقيدة الإيمان بالله وبعظمته وحكمته وقدرته، وبُعْدُ الانتفاع بالنسج على منوال القوانين المكتشفة لتطوير الصنع في وسائلنا المادية بصفة عامة، من وسائل الإنارة إلى المراكب الفضائية إلى ما سيأتي مما لا يعلمه إلا الله. يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53] وقال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: 93] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: 3 ـ 5].

ولقد كان في هذه الكشوف العلمية المطابقة لما جاءت به الآيات القرآنية إعجاز علمي للقرآن الكريم خضعت له رقاب كبار العلماء في الدنيا فأحنوا رؤوسهم إجلالاً. وأعلنوا إسلامهم اقتناعاً. أمثال «موريس بوكاي» الطبيب الفرنسي مؤلف كتاب (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) وأمثال «روجيه قارودي» الفيلسوف الفرنسي الشهير وغيرهما كثير ومن هنا يتجلى أن العقيدة الإسلامية شهدت تحولاً إيجابياً مكّنها من العودة إلى أصالتها الثابتة وجعلها من جديد علماً من أصح العلوم الوجودية.

العلـم والإيمـان

إن أهمية العلم في إثبات العقيدة وتثبيتها بلغت حداً رفيعاً جداً في الإسلام، ذلك أن الذي يثبت عقيدته عن طريق العلم يصبح مالكاً لها ملكية احاطة وتطويق، الأمر الذي يؤهّله إلى حراستها وحمايتها والدفاع عنها، لأنه يملك وسائل الحماية والدفاع، إذ هو مسلح بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة والأدلة الساطعة، فإذا جاء من ينازعه في عقيدته، ويحاول أن يربكه ويلبس عليه الحق بالباطل تصدّى له من موقع القوة والاقتدار، ورده على أعقابه مذموماً مدحوراً. وبذلك يقي نفسه من شره ويقي الأغرار من أمته ويحميهم من مكره، والأغرار العاجزون عن حماية أنفسهم موجودون في كل أمة ويمثلون فيها السواد الأعظم في كثير من الأحيان، لأنهم يتكونون من فئة الفتيان والفتيات أولاً، ومن فئة ضعاف المدارك ثانياً، والفئتان مسؤول عن حماية عقيدتهما أولو الألباب من المعلمين والأساتذة والمشتغلين بالسياسية والاعلام والطب والاقتصاد.

ثم لا يقف دور أرباب الإيمان العلمي عند حد الدفاع عن عقيدة الأمة، وإنما يتعدّاه إلى الدعوة لها، فهم الدعاة الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر استجابة لأمر ربهم. ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104] وبذلك تكون عقيدتنا في حالة زحف متواصل وحركة دائبة وانتصار يفتح الطريق أمام انتصار آخر.

من أجل ذلك رفع الله عز وجل إيمان العلماء إلى أعلى مراتب الإيمان، إذ جعله في مرتبة إيمان الملائكة حين قال جل جلاله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]. لذلك بات العلم ضرورة من ضرورات الأمة الإسلامية خاصة، ومن ضرورات الإنسان فوق هذه الأرض عامة، ولذلك جعل الإسلام طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة فقد قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» (رواه ابن ماجه وغيره).

وإذا كان العلم ضرورياً في إثبات العقيدة وتثبيتها، فإنه ضروري أيضاً في معرفة مقتضيات هذه العقيدة ومستلزماتها، وضروري أيضاً في معرفة حقائق الحياة وطبائعها ونظم سيرها وأسرار توازناتها، وما إلى ذلك مما يؤهّل الإنسان إلى امتلاكها واستخدامها، والانتفاع بمعطياتها وإمكاناتها، حتى يكون بحق خليفة الله عز وجل في الأرض. فالله حين استخلفه سخر له ما في السماوات وما في الأرض ولم يسخر له ذلك ليتفرج ويعجب ويسبح الله فقط، وإنما

ليفهم ويعقل ويستنتج ويكتشف ويعمل على تجديد صيغ متغيّراته المادية. يقول سبحانه: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: 9 و10].

ثم وبالعلم فقط نتفادى مزالق الأخطاء والأوهام والظنون والأهواء، وهي مزالق مهلكة ومدمّرة لكيان الفرد ولبنية المجتمع، إذ أن التخبّط في دياجير الظنون والأهواء ضلال، والضلال ضياع، والضياع هلاك. يقول جل شأنه: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: 157] يقول سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 119].

ومن كل ما أسلفت يتبين أن البنى الوجودية العليا لا تقام إلا على أسس العلم الصحيح، وأن العلم الصحيح لا يحصل إلا عن طريق اليقين، وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً، لذلك أصبح لزاماً على الإنسان أن يبحث عن وسائل العلم الحق ليستخدمها، حتى يحقق مطلوبه ويبني حياته على قواعد الحق، التي لا يثبت بناء إلا إذا أقيم عليها.

فما هي وسائل العلم عند الإنسان؟

كلنا يعلم أن وسائل العلم عند الإنسان هي حواسه الخمس وقوة تصوّره. لذلك نستعرضها حاسة حاسة.

1 ـ **اللسان**: وهو أداة خلقها الله لتمييز طعم المواد المختلفة وحدود عمل اللسان ضيقة جداً لأن تمييزه للطعم محصور في نطاق ما

لامس اللسان بشرط أن يذوب في اللعاب لكن كل علم يأتينا من اللسان يجب أن يتحفظ عليه لأنه معرض للخطأ بسبب المرض مثلاً أو بسبب تشابه طعوم عديد المواد. . .

وقديماً قال أحد الشعراء:

وَمَــنْ يَــكُ ذَا فَــمٍ مُــرٌ مَــرِيــضٍ
يَــجِــدْ مُــرًا بــه الــمَــاءَ الــزُّلاَلَ

2 ـ **الأنف**: وهو جهاز تعرف به روائح المواد ذات الرائحة، وقد يتوقف عن العمل وقت المرض كالزكام. بالإضافة إلى أن حدود عمله ضيقة جداً. إذ أن قدرته على الشم لا تتجاوز بضعة أمتار ويختص بالمواد ذات الرائحة فقط. لذلك فإن أثره لا يكاد يذكر في بناء العلوم الإنسانية.

3 ـ **الجلد**: وهو أداة حس لما يقع على الجسم من الأشياء، فيميز بين الناعم والخشن والثقيل والخفيف والحاد وغير الحاد والحار والبارد، ولكنه لا يدرك من الأشياء إلا ما كان له ثقل معلوم فهو لا يحس بالجراثيم، أو الكائنات الدقيقة، أو الضوء أو الأمواج الإشعاعية كأمواج الراديو واللاسلكي، وقد يخدر فلا يحس شيئاً، وحدود عمله ضيقة جداً، وليس له أثر كبير في بناء العلوم الإنسانية.

4 ـ **العين**: هي نعمة كبرى نرى بها الأشياء المختلفة ونقدر أحجامها وأشكالها وأبعادها وألوانها ومواقعها لكنها معرضة

للأخطاء كأن ترى الشمس كقرص الخبز وهي كالأرض 1350000 مرة أو ترى العصا مكسورة عند سطح الانفصال في حوض الماء، أو ترى المنازل كعلب السجائر من الطائرة، ومجال عملها محدود أيضاً ولكنها آلة هامة جداً في بناء العلوم والمعارف الإنسانية ومعظم الأشياء المادية تقع تحت رؤية العين.

5 ـ **الأذن**: أعظم حاسة تكفلت للإنسان بأكثر من 90% من علومه كما أن أكثر من 90% من العلوم الإنسانية قامت على أساس الأذن حتى أن بقية الحواس تبدو كأنها مسخرة للإنسان بواسطة نقل نتائج عملها إليه بواسطة أذنه عن طريق السماع، ومجال الأذن واسع جداً، حدوده هي حدود مشاهدة الجنس البشري بأكمله، وتمتد حدود الأذن إلى ما شاهده المرسلون، وإلى ما أطلعهم عليه ربهم من غيوب. ولكن الأذن تخدع أيضاً فهي معرضة إلى سماع الحق وإلى سماع الباطل. لذلك فنحن لا نقبل ما جاءنا عن طريق الأذن بدون تحرّ أو تدقيق في المصدر الذي يصلنا منه العلم أو الخبر.

قوة التصور: من أعظم ما وهب الله عز وجل للإنسان قوة التصور التي بها يستطيع أن يحول أفكاره أو مسموعاته إلى واقع مادي حتى يرى ويلمس، وبها يستطيع أن يضع الترتيبات والمشاريع والمخططات لما يريد أن يعمله، ولعل أكثرنا يعلم أن قوة التصور

كانت دائماً منطلقاً لأعمال المخترعين والمهندسين، فهم يتصورون ما يريدون في عالم الخيال، ويحولونه إلى عالم الأشكال، ثم إلى عالم الواقع ولكن هناك فرق كبير بين الحقيقة وما يتصوره الناس من حيث التفاصيل، غير أن قوة التصور عملها يتوقف على المعلومات التي تصلها من الحواس الخمس، ذلك أن الإنسان لا يبدأ تصوراته من لا شيء، إنما يبدأها من معارفه التي حصل عليها عن طريق حواسه، ووقتها يركّب ويحلل ويبدع. وقد يجنح الخيال بالإنسان فيتصور أشياء لا يقبلها العقل ولا تتماشى مع المنطق، فقوة التصور هي الأخرى معرّضة لاخطاء الجنوح والشرود، وتجاوز المعقول، لذلك كان لزاماً علينا أن نعرض أعمال هذه القوة على العقل ليفحصها وينقدها ويقبل منها المعقول ويرد غير المعقول.

العقل هو الحكم

إذا فكرنا ملياً في عمل وسائل العلم جيمعها وجدناها في حاجة إلى الغربلة والتقييم والنقد، لذلك لا بد من عرض حصائل أعمال هذه الوسائل على من يكون مؤهّلاً للتقييم والنقد وإصدار الأحكام وكلنا يعلم أن المؤهل لمثل هذا هو العقل وحده، غير أنه هو الآخر معرض للأخطاء وإصدار الأحكام الباطلة، لا لأنه في أصل تركيبه غير صالح لإصدار الأحكام الصحيحة، وإنما لأن أحكامه دائماً تكون نتيجة ما تمده به الحواس الخمس وقوة التصور من معطيات، فإذا كانت تلك المعطيات صحيحة وسليمة جاءت أحكام العقل كذلك سليمة وصحيحة، وإذا كانت المعطيات خاطئة جاءت أحكام العقل خاطئة، ولكن رغم ذلك فإن العقل يبقى هو الأساس الذي يقوم عليه العلم الحق.

حـدود العقـل

طاقة العقل ليست مطلقة، وإنما هي محدودة، ولا يستطيع العقل أن يتجاوز حدوده أبداً، لذلك نجده كثيراً ما يقف عاجزاً عن اقتحام العقبات مستسلماً أزاء المشاكل والصعوبات، مهزوماً أمام التحديات، وذلك لأن له حدوداً لا يمكن أن يتعداها وهذه الحدود كما يلي:

أ ـ **حدود في المجال:** عرفنا منذ حين أن عمل العقل مرتبط بعمل الحواس الخمس وبقوة التصور، بحيث لو توقف عمل هذه الحواس لتوقف عمله هو، فلو تصورنا إنساناً بلا حواس، فهل يمكن أن يعلم شيئاً بعقله؟ لا أبداً وبما أن عمل الحواس مجاله محدود كما أسلفنا فإن عمل العقل مجاله محدود أيضاً، وما قيل عن الحواس يقال عن قوة التصور.

ب ـ **حدود في القدرة:** والسؤال هنا هو: إلى أي حد تصل قدرة العقل على إدراك الأشياء؟ والجواب الفوري يحمله هذا

السؤال: هل يستطيع العقل أن يدرك نفسه؟ وهل يستطيع أن يدرك كيفية عمله؟ والجواب الفوري عن هذين السؤالين هو: لا.

فإذا كان العقل عاجزاً عن إدراك نفسه وكيفية عمله فكيف به إذا طالبناه بإدراك غيره؟

العقل مثلاً عاجز عن إدراك أكبر عدد. لذلك يقول لك هو: ما لا نهاية فإذا قلت له اجمع 0 + 0 = يقول لك = 0 ما لا نهاية... الخ وهو عاجز عن إدراك ما سيحدث غداً، وعن إدراك ما وراء هذا الجدار، وما تحت هذه الصخرة... الخ.

يقول سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: 255].

مصادر العلم(*)

المصادر التي يستمد منها الإنسان معلوماته لا تتجاوز الأربعة وهي:

1 ـ علم المشاهدة المحسوس مثل المرئيات والمطعومات والمشمومات والمسموعات والمحسوسات.

2 ـ التعليم الإنساني بواسطة اللغة ومن هذا المصدر يحصل الإنسان على أكثر من 90% من العلوم الإنسانية التي تقدم في المدارس والجامعات وغيرها من المؤسسات العلمية.

3 ـ الوحي: وهو أعظم وأسمى مصادر العلم، لأن علومه تأتي من لدن من أحاط بكل شيء علماً، وتأتي عن طريق من اصطفاهم الله عز وجل وأيّدهم بالمعجزات.

(*) أرجع فيما أسلفت من وسائل المعرفة وحدود العقل ومصادر العلم إلى كتاب توحيد الخالق للشيخ عبد المجيد الزنداني.

وعلوم الوحي أرقى العلوم وأعلاها لأنها توقف الإنسان على حقائق يستحيل عليه أن يقف عليها بإمكاناته المحدودة ووسائله القاصرة. فالإنسان لا يمكنه أن يعرف من خلقه؟ ولماذا خلقه؟ ولماذا يموت؟ وماذا بعد الموت؟ وما هو المنهج الذي إذا سلكه ضمن لنفسه السعادة في الدنيا والآخرة. . . الخ.

وموقف الإنسان من علوم الوحي ليس موقف النقد ولا التثبت من صحة المعلومات وإنما هو فقط موقف الإيمان والتصديق والإذعان.

4 ـ **الرؤيا الصادقة**: وهي مصدر من مصادر العلم والمعرفة ولكنها شخصية ونادرة ولا تلزم الآخرين بالتصديق.

وبما أن أساس العلوم الحديثة كما أشرت إلى ذلك في كلمة المدخل هو التجربة أو الظاهرة مع المشاهدة مع الاستنتاج العقلي ليتم الوصول إلى الحقيقة العلمية، وقد أشرت أيضاً إلى أن المستنتج هنا ليس حقيقة الشيء وإنما هو فقط آثاره، ومن ثم أصبحنا نعرف الأشياء لا بحقائق ذواتها وإنما بصفاتها وآثارها، إذا ثبت لدينا هذا فهل نشترط لمعرفة الله عزّ وجل معرفة ذاته المقدسة أم نكتفي بمعرفة آثاره وصفاته التي تنطق بها هذه الآثار؟

لا أشك في أن كل عاقل متجرد يفكر تفكيراً موضوعياً يقول: لا نشترط في معرفة الله ما لم نشترطه في معرفة سواه، فنحن عرفنا واعترفنا بما حولنا من الموجودات المادية وغير المادية بمجرد ما

قامت الأدلة القطعية على وجودها، وكل أدلة الإثبات مستمدة من آثار تلك الموجودات ومظاهرها الخارجية لا من حقائق ذواتها.

فلنطبق إذن أسس المعرفة العلمية على معرفة وجود الله عز وجل.

ولنقف عند هذه الأسس الثلاثة:

1 ـ لكل فعل فاعل.

2 ـ الفعل مرآة لقدرة صاحبه وبعض صفاته.

3 ـ ليس الفاعل من لا يملك القدرة على الفعل.

ولنبدأ بالأساس الأول: إذا شاهدنا ملايين من الأحداث تحدث كل يوم عرفنا أن هذه الأحداث لا ينشئها العدم، وإنها تشهد بأن لها منشئاً موجوداً. يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: 35 و36].

ثم إذا انتقلنا إلى الأساس الثاني وجدنا أن هذه الأحداث والمخلوقات تشهد بأن خالقها يتصف بصفات الكمال فهي عظيمة، محكمة موجهة، متناسقة، خاضعة لنظام دقيق وبما أنها عظيمة فإن خالقها لا يكون إلا عظيماً وبما أنها محكمة فخالقها لا يكون إلا حكيماً، وبما أنها موجهة فخالقها لا يكون إلا مريداً، وبما أنها متناسقة فخالقها لا يكون إلا واحداً، وبما أنها خاضعة لنظام دقيق فخالقها لا يكون إلا مهيمنا. وبما أنّ الصفات السابقة مستمدة من الموجودات فإنها لا يمكن أن تكون إلا صفات لموجود. هو الله ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: 3].

ولننتقل إلى الأساس الثالث: نلاحظ أن كل المخلوقات الكونية تتصف بالعجز والجهل وفقدان الإرادة ومحدودية البقاء، ومن ثم فهي مخلوقات محتاجة إلى خالق حكيم عليم قدير يختلف عنها في الذات والصفات. يقول جل جلاله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 73 و74].

إذن فكل ما في هذا الكون من مخلوقات غير مؤهل لخلق أي شيء، وجميعها في حاجة إلى خالق ومدبر لأمر وجودها. فمن خالق هذا الكون وما فيه؟ لا يبقى أمامنا إلا جواب واحد هو: الله هو الخالق الباريء المصور.

وقد أسلفت أن الله تعالى لا يعرف بذاته وإنما يعرف بآثاره وصفاته (ارجع في وسائل العلم وحدود العقل ومصادر المعرفة إلى كتاب توحيد الخالق للأستاذ عبد المجيد الزنداني) (ص137 ـ 143).

ومما أسلفت تتجلى لنا حقيقة تبدو واضحة وضوح الشمس في ضحاها، تتمثل في إقرار العقل البشري بضعفه وعجزه ومحدودية إمكاناته، لأن جميع المستنتجات السالفة من صنع العقل، وقف عليها بنفسه واستمدها من واقع عاشه وما زال يعيشه، وكل هذا كان

من نطاق منهج النقد الذاتي الذي يستند إلى الموضوعية المجردة، ويستهدف الحقائق المطلقة، لأن الذي ينقد ذاته قل أن يحتال عليها باستخدام المربكات. إذ أنه لا يقف أمام محكمة الآخرين التي يمكن أن تدينه وتعرضه إلى العقاب الصارم، وإنما يقف أمام محكمة نفسه التي تسعى إلى السمو به إلى ذروة الحق ليكون من أهله الذين إذا قالوا صدقوا، وإذا عملوا أحسنوا، وإذا أساؤوا ندموا واستغفروا وتابوا ولم يصرّوا ولم يستكبروا.

وما دام العقل قد اعترف بعجزه وضآلة قدراته ومحدودية إمكاناته، وما دامت رسالته في الحياة بالغة الخطورة، عظيمة الأهمية، وما دام كل ما حوله من مخلوقات هذا الكون يشهد بعظمة الخالق وقدرته وحكمته ومطلق علمه فإن هذا العقل لا يسعه إلا أن يعترف:

1 ـ بأن خالقاً أعظم وأكمل وأعلم وأحكم هو الذي أبدع هذا الوجود.

2 ـ بأنه بعضُ خلق هذا الخالق الأعظم.

3 ـ بأنه في حاجة إلى خالقه شأن سائر المخلوقات.

4 ـ بأنه يدين له بالولاء والطاعة دون سواه.

5 ـ بأنه لا يدّعي خلقاً ولا علماً ولا قدرة إلا في حدود ما أفاء به عليه الله.

6 ـ لا يقول بعلمي أدير شؤون الأرض والسماء، ولا أدين إلا للعلم بالولاء.

ومن هنا تصبح أيديولوجية العلمانية أيديولوجية كل سخيف غابت عنه أوضح حقائق الوجود، وأيديولوجية ما قبل القرون الوسطى عندما كانت الجهالة مهيمنة على العقول والقلوب هيمنة قادت قارون إلى الاستكبار على ربه، والاستنكاف من الاعتراف له بالفضل فقال قولته الحمقاء: «إنما أوتيته على علم» كما قادت أقواماً آخرين إلى الاعتزاز بما عندهم من العلم، والإعراض عما جاءهم به رسل الله من الحق. يقول عنهم الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: 83].

وهنا أريد أن أقول: أن الذين ينسبون هذه الأيديولوجية إلى العلم إنما يضللون بذلك البسطاء والغافلين، لأن العلم براء من هذه المهزلة السخيفة. كما أريد أن أقول: إن الذين يقولون: نحن ننتسب أو ندعو إلى العلمانية بمعناها العلمي المتمثل في التفكير العلمي المنهجي السليم. أقول لهم: إننا معكم فيما تذهبون إليه لأن الإسلام لا يقبل إلا بالتفكير العلمي المنهجي السليم، لكن الذي نرفضه هو العقيدة التي تؤلّه العلم وتجعله بديلاً عن الله أو شريكاً له، ووقتها لماذا لا نسمي توجهنا هذا «بالعلمية عوض العلمانية» حتى نتخلص من كل شبهة يمكن أن تعلق بأذهان أبنائنا الأغرار فعوض أن يقبلوا على المنهجية العلمية التي تفضي بهم إلى الرحاب الإيمانية نجدهم يقبلون على المنهجية الأيديولوجية العلمانية التي

ترمي بهم في المستنقعات الإلحادية، فيكفرون بالله ويؤمنون بالعلم الذي وهبهم الله إياه، لذلك أناشد كل العقلاء المثقفين من أبناء أمتنا أن يتوخوا سبل الرشاد في تفكيرهم وتدبيرهم وأن لا يتسرعوا في تلقف المستحدثات الأيديولوجية وأن لا تبهرهم التقليعات الغربية، وأن يحوّلوا إعجابهم وانبهارهم وإقبالهم وتوقهم إلى المجالات العلمية التي تبنيهم وتبني أمتهم وتجعلهم من جديد يبعثون خير أمة أخرجت للناس.

صفات اللّه

مشكلة الإنسان منذ القديم تمثلت في بداية المطلوب المعرفي سذاجة أو مكراً. إذ أن الطالب قد ينبثق طلبه عن سذاجته وقد يفرزه مكره وعناده. وهذ المطلوب البدائي كان دائماً متمركزاً حول تجسيم المعرفة تجسيماً يمكّن من رؤيتها بالعين ولمسها باليد، ولعلنا كنا نقول: إن القصور الذهني هو الذي قعد بالإنسان عن تجاوز المحسوس إلى المجرد، إذ أن الارتقاء إلى المجرد قفزة عملاقة ترقى بصاحبها إلى قمة الحقيقة العلمية المجردة. وهنا يبقى المحسوس قائماً ويبقى التعامل معه لازماً، غير أنه لا يكون غاية في ذاته وإنما يكون وسيلة لغيره من الحقائق المجردة، فنحن عندما نستعمل في تعليم الطفل مجموعة أقلام ونضع بين يديه قلمين ثم نضيف إليهما قلمين آخرين فيقول الطفل: قلمان وقلمان يساوي أربعة أقلام، إننا في هذه الحالة نريد تجاوز الأقلام والمسطرات وحبات الفول وغيرها من المحسوسات لنصل بالطفل إلى الحقيقة العلمية المجردة،

والمتمثلة في أن مطلق 2 + 2 = 4. فالمحسوس لا يستغنى عنه وإنما يبقى أداة تساعد على الارتقاء إلى المجرد.

وفي مجال معرفة الله عز وجل نجد أنفسنا مع هذه المنهجية العلمية على طريق استخدام المحسوسات الكونية للوصول إلى معرفة الله عز وجل معرفة مجردة بعيدة عن كل محسوس. الأمر الذي يتيح لنا فرصة تجاوز بدائية المطلوب المعرفي الساذج أو الماكر، الذي كان ولا زال محافظاً على وجوده لدى البعض، وقد يصدر هذا المطلوب لا عن سذاجة أو غفلة أو قصور أو جهل، وإنما عن طيبة وبراءة وفرط محبة، واضطرام شوق كالذي صدر عن سيدنا موسى عليه السلام عندما قال لربه: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143] فسيدنا موسى هنا طلب الرؤية لا عناداً ولا مكراً ولا اشتراطاً وإنما طلبها شوقاً ومحبة حتى يجتمع له التكليم والرؤية فتكتمل عنده المعرفة الحسية.

لكن الذين اشترطوا للإيمان بسيدنا موسى أن يروا الله جهرة كانوا ماكرين معاندين، لأن الآيات التي جاءهم بها سيدنا موسى عليه السلام كفيلة بإقناعهم، لأنها أقامت الأدلة القاطعة على صدق رسالته. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: 55].

المهم هو أن النزعة الحسية قائمة في الإنسان غير أنها تخفّ حتى تصبح جسراً يؤدّي إلى التجريد، وتقوى حتى تصير عقبة كأداء تحول دون الوصول إلى الحق المطلق، ثم أن المُهِمَّ هنا هو أن

معرفة الله عز وجل أساسها التجريد المطلق، وأداتها المحسوس العام، فعن طريق المحسوسات تصل إلى المجردات التي تمثل الحقائق الوجودية المطلقة، وهي أرقى الحقائق وأسماها وأثبتها.

وقد أسلفنا أن الله عز وجل موجود، وأن وجوده يشهد به كل كائن في هذا الوجود، لأنها جميعاً أعني الكائنات زاخرة بالدلالات، وكل دلالاتها تصبّ في غاية واحدة تتمثل في الشهادة بأن الله تعالى موجود، كما بينت ذلك آنفاً.

ثم أن الوجود لا يقل عن ثلاثة أنماط:

النمط الأول هو الوجود الموجد إطلاقاً.

النمط الثاني هو الوجود الموجد نسبياً.

النمط الثالث هو الوجود العدمي.

والنمط الأول وهو الوجود الموجد إطلاقاً معناه أن هذا الوجود مهيمن على كل موجود هيمنة خلق وأمر، ومعنى ذلك أن كل موجود في هذا الكون مخلوق له ومحكوم به. يقول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

ويقول سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: 1 ـ 3].

وأما النمط الثاني وهو الوجود الموجد نسبياً فيمثله وجود الإنسان، الذي جعله الله خليفة في الأرض وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وعلمه ما لم يعلم، ودعاه إلى تطوير المتغيرات

المادية تطويراً يرقى بظروفه ووسائله المعاشية، فالإنسان هنا يعتبر موجداً بالنسبة إلى بقية المخلوقات التي استقبلت منهج الله بالإلهام وتنفذه تنفيذاً لا إرادياً.

وأما النمط الثالث وهو الوجود العدمي فإنه الوجود الذي لا يمثله موجود بحق كالأوهام والهواجس والظنون والأهواء.

ووجود الله عز وجل هو الوجود الموجد إطلاقاً، ومن ثم باتت الهيمنة المطلقة على كل موجود أمراً حتمياً، ووقتها يأتي وضع منهج حركة المخلوقات، ويأتي تطبيق هذا المنهج إرادياً أو لا إرادياً طبق مشيئة الله الخالق، وإذا وضع الإنسان أمامه الصورة الجلية الواضحة لهذا الكون وخالقه ومنهج حركته وتطبيق هذا المنهج، بدأت الصور تتداعى في ذهنه وتتواتر وتنساب في عفوية انسياب الماء الزلال في المنحدرات الطيبة، وتواردت على خاطره عدة أسئلة:

كيف يمكن أن يكون خالق هذا الكون؟ ما هي الصفات التي يجب أن يتصف بها؟ هل أن صفاته مطلقة أم نسبية؟ وهل هي ثابتة أم متغيرة؟ وهل يمكنني أن أعرف هذه الصفات؟ ومن أين استمدها إلى غير ذلك من الأسئلة الجادة والموضوعية.

ثم تتداعى الأجوبة منطقية عقلية واضحة كلما ثبّت الإنسان قدميه على طريق الموضوعية والمنطق السوي، وكلما تجرّد من المعوّقات المسبقة، ذلك أن الباحث إما أن ينشد الحقيقة وحدها ولا شيء قبلها ولا شيء معها ولا شيء بعدها، فيصل بإذن الله إلى

الحقيقة كلها أو إلى بعضها حسب طاقته الفكرية وتبعاً لإحكام منهجية بحثه. وإما أن ينشد الانتصار إلى رأي مسبق، فهو يريد استخدام الحقيقة لا خدمتها ويريد حجبها لا كشفها. والباحث المتجرد الموضوعي النزيه هو الذي يصل إن شاء الله إلى المطلوب المعرفي الصحيح.

وأول ما قد يخطر على بال الإنسان هو: الله خالقي وخالق هذا الكون كله فمن هو خالق الله؟ ومتى بدأ وجود الله؟

وفي الحال يتحرك المنطق الصائب ليطرح هذا السؤال: هل الله مثل هذه المخلوقات حتى نبحث له عن بداية وعن خالق؟ وإذا كان ليس مثلها فلن يكون لوجوده بداية ولن يكون لوجوده نهاية أيضاً حتى لا يكون مثلها في أي شيء. ومن هنا نستنتج أن الله قديم وباق ومخالف لكل المخلوقات. يقول سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

وإذا كان الله تعالى مخالفاً للحوادث في كل شيء، وإذا كانت الحوادث كلها مفتقرة للذات المادية وللموجد الخالق، فإن الله تعالى قائم بنفسه مستغن عن المحل أعني الذات وعن المخصص أعني الموجد ثم يمضي الإنسان متفكراً في خلق نفسه أولاً ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21] وفي خلق السماوات والأرض ثانياً ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 190] ومن خلال التفكير الرصين والنظر الثاقب، ومن منطلق العفوية الفطرية يستخلص الإنسان حقيقة لا تقبل النقاش ولا

تحتمل الشك: هذه الحقيقة تتمثل في أن هذا الكون ليس له إلا إله واحد وخالق واحد ومدبر واحد ومسير واحد الأمر الذي يحتم صياغة هذا المفهوم في العقل والقلب واللسان وجوارح الأبدان صياغة نهائية أبدية منطوقها ومضمونها: «لا إله إلا الله» ذلك أن الماضي والحاضر يشهدان بأن تعدد القيادات لا يفضي إلا إلى الخراب والفساد والدمار.

وسأعود إلى هذا الاستنتاج في بحث لاحق مستقل إن شاء الله لأنه رأس العقيدة وذروتها وأمها والقاعدة التي يقام عليها بناؤها.

وإذا كان الله عز وجل هو الخالق وهو المدبر وهو المسير وهو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض فهل تجب له صفات أخرى يستحيل عليه أن لا يتصف بها؟ نعم. وبالعودة إلى أصل فطرتنا وبالتمسك بموضوعية تفكيرنا وبالنظر الهادىء في نواميس حياتنا، يتبين لنا أن مبدع هذا الكون ومدبر أمره لا يمكن إلا أن يكون:

1 ـ قادراً قدرة مطلقة لا نسبية وثابتة لا متغيرة. يقول سبحانه: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: 2].

2 ـ مريداً إرادة مطلقة وثابتة أيضاً فلا شيء يقع في هذا الكون بالصدفة ولا شيء يقع دون إرادة الله عز وجل وقصده: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].

(عبدي أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد) حديث قدسي.

3 ـ عالماً وعلمه جل جلاله لا تحده حدود ولا تقيده قيود ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ [سبأ: 2] ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: 19] ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ﴾ [التغابن: 4] يعلم كل ما كان وما يكون وما هو كائن.

4 ـ حياً لا يموت، أما حياته الحالية فتشهد لها إبداعاته المتجددة كل طرفة عين والتي لا يمكن أن تصدر إلا عن حي، وأما حياته الدائمة فلأنه مخالف للحوادث. والحوادث تموت وهو جل شأنه حي لا يموت يقول سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: 58] ويقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88] ويقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26 و27].

5 ـ متكلماً لأنه بلّغ لمخلوقاته جميعها منهجه التشريعي الضابط لحركة وجودها بلغة هي إعجاز في اللغات. وبكلام هو إعجاز في الكلام وقد قال سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164].

6 ـ سميعاً لأن السمع صفة كمال بها تكتمل الاحاطة بالمخلوقات والله بكل شيء محيط، لذلك كان سميعاً، يسمع السرّ والجهر، ويسمع الهمس والنجوى ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: 7] ويقول سبحانه ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ [المجادلة. 1]،

7 ـ بصيراً لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يرى في الظلام كما يرى في النور، ويرى البعيد كما يرى القريب، ويرى الصغير كما يرى الكبير. يقول سبحانه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 144] ويقول ﷺ: «**إن الله يرى ويسمع**» ويقول جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

ثم أثبِتْ لربك كل صفات الكمال والجلال فإنه سبحانه متصف بكل كمال مطلق، وكماله لا يماثله في شيء منه سواه، يقول جل في علاه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

وبذلك أخا الإسلام تكون قد عرفت ربك لا بذاته وإنما بآثار فعله وصفاته معرفة جعلتك تؤمن به إيماناً راسخاً ثابتاً لا تقدر قوة تحت الشمس إن تزعزعه، وبذلك تكون قد أقمت في نفسك قاعدة الإيمان التي عليها ستبني صرح الإسلام إن شاء الله، والتي بدونها لا تستطيع بناء شيء من الإسلام في عقلك ولا في قلبك ولا على لسانك ولا في جوارحك. ومن أجل هذا قال أحد العارفين بالله ناصحاً كل مسلم:

«اعرف ربك وأصلح نفسك وادع غيرك» فمعرفتك بالله تؤهلك لإصلاح نفسك طبق المنهج السلوكي للإسلام، وتمكنك من أن تشع على غيرك بالإسهام في دعوة الناس إلى الإسلام وهدايتهم إلى شريعة القرآن وسنة محمد خير الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

الرســل عليهــم السـلام

1 ـ مفهوم الرسالة:

لا نستطيع تصور مفهوم الرسالة بوضوح وعمق إلا إذا وعينا وفهمنا صفة وجودنا على الأرض. هل نحن مالكون أصليون ثابتون قارون فوق هذه الأرض؟ أم نحن لا نملك صفة الأصالة والثبات والبقاء؟ الواقع هو الذي يعطينا الجواب الصحيح. إننا خلفاء وقتيون مارون.

فمن هو الذي استخلفنا؟ ولماذا استخلفنا؟ وهل الاستخلاف أبدي أم وقتي؟

سؤالان فقط من هذه الأسئلة الثلاثة نجيب عنهما فنقول: استخلفنا الله تعالى لأجل مسمى أي لمدة معينة أما السؤال الثالث لماذا استخلفنا؟ فالجواب عنه هو مفهوم الرسالة. أي الرسالة هي التي تعطيك مضمون ومحتوى هذا الاستخلاف. ومعنى هذا كله أن الرسالة تحدد لك إطار المهمة التي ستقوم بها فوق هذه الأرض

وطيلة الفترة التي ستحياها. فهي تتضمن إرشادات مدققة وتعليمات مضبوطة عليك أن تتبعها وتنفذها لتتمكن من قضاء مدة استخلافك في خدمة المهمة التي من أجلها جئت إلى هذه الأرض.

وهذا أمر منطقي لأن طبيعة وجودك لا تسمح لك بالتصرف المطلق لأنك لست المالك الأصلي ولا الكائن الثابت ولا الموجود الأبدي. وما دمت كذلك فأنت في حاجة أكيدة إلى تحديد مهمتك وإلى شرح كاف وواضح للكيفية التي ستؤدي بها تلك المهمة حتى لا تحصل أخطاء ليست في صالحك ولا في صالح مهمتك.

2 ـ تواتر الرسل:

الرسل هم الواسطة بين المرسل وهو الخالق سبحانه وتعالى والمرسل إليهم وهم عباده على هذه الأرض. وقد شاءت حكمة الله أن يصطفي للناس رسلاً من أنفسهم حتى تَيْسُرَ المهمة ويسهل الاتصال ويتم التبليغ بأسرع ما يمكن.

والإنسان مبتلي بالنسيان، والنسيان هنا ليس بمعناه اللغوي فقط وإنما بمعناه العنادي أيضاً، أي أنه يتناسى عناداً أو هروباً من تحمل مسؤولية الانضباط والالتزام، إذ هو ينزع دائماً إلى الانطلاق دون قيود ولا حدود، ولا ننسى أن الشيطان يتربص به ولا يترك وسيلة من وسائل إغرائه والتغرير به إلا ويستعملها معه، حتى يوقعه في أحبولة ما سماه له باطلاً «بالتحرر» فهو يستدرجه ليضع رقبته ويديه ورجليه في سلسلة العبودية لغرائزه الحيوانية الأرضية، وفي الوقت

نفسه يقدم لافتة مكتوب عليها عبارة «أنا حر» ليرفعها كشعار يتغنى به، والطُّعْمُ الذي يصطاد به الشيطان ضحاياه هو دائماً مستمد من ذوات الضحايا أنفسهم. فالإنسان ينزع إلى كذا ولا ينزع إلى كذا نزوعاً لا محدوداً، والشيطان يأتي إلى ذلك النزوع ويذكيه ويغذيه ويبرره ويزينه حتى يضفي عليه الصبغة الشرعية: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 39] والرسل بشر وأجالهم محدودة. فإذا انتقل الرسول إلى جوار ربه وطال على أمته الأمد وفعل الشيطان فعلته. وقست القلوب وتنوسيت شريعة الله، اقتضت الحكمة أن يبعث رسول آخر يجدد الدعوة. ويرشد الناس، ويصلح ما أفسدته أيديهم، ويقنعهم بضرورة الوقوف عند حدود الله.

وقد يجتمع أكثر من رسول في وقت واحد وفي جهات مختلفة وذلك بسبب صعوبة التنقل وبطء الاتصال وعسر التحول بالدعوى إلى آفاق بعيدة ولأسباب أخرى يعلمها الله.

كما أن الرسل الذين تعاقبوا على مدى التاريخ كانت رسالاتهم تحمل مضامين قد تبدو مختلفة لمن لا يعمق النظر، لكنها في الواقع موحدة إذا نظرنا إليها بعمق وشمول. فجميع الرسالات تدعو إلى توحيد الخالق وتخليص الإنسان من العبودية لغير الله سبحانه حتى يعيش على هذه الأرض حراً غير خاضع لأي قوة من قواها، وبذلك يمكنه استخدام كل شيء والانتفاع بكل شيء وهو على طريق عبادة الله وحده لأن كل شيء مسخّر للإنسان ولم يسخّر الإنسان لشيء من تلك الأشياء، وبذلك يبقى هو سيدها فإذا فسدت عقيدته حلت

الكارثة بأهم مقوماته كإنسان ألا وهي حريته وسيادته.

نعم جاءت الرسالات لتنظيم العلاقة بين العبد وربه وبين الإنسان وبقية الكائنات التي تشاركه الوجود على هذه الأرض تنظيماً يكفل له التوازن والانسجام.

وقد يبرز جوانب اجتماعية معينة تخصها الرسالة بالعناية نظراً إلى أن تلك الجوانب كانت أبرز وأخطر خلل أصيبت به حياة الناس بعد فساد عقيدتهم، فقد اهتم سيدنا شعيب مثلاً بمقاومة التطفيف في الكيل والميزان لطغيان هذه الظاهرة في القوم الذين بعث إليهم وقاوم سيدنا لوط ظاهرة الشذوذ الجنسي... إذن فتواتر الرسل تتمثل حكمته في تذكير الإنسان بما قد يكون نسيه أو تناساه.

وهنا أؤكد على كلمة تذكير لأن الدّين مزروع في عمق كل إنسان، فالإنسان متدين بالفطرة، لذلك هو في حاجة فقط إلى التذكير بقول الحق سبحانه.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30].

3 ـ أما الدلائل على صدق الرسالات:

فقد كانت دائماً تعتمد واقع حياة الناس الذي يعيشونه ومعنى ذلك أن دليل صدق الرسول يكون مستمداً من الواقع المادي الذي يحيونه فثمود قبائل صحراوية تركز على الإبل والمواشي بصفة عامة

فلما طلبوا دليل الصدق من رسولهم سيدنا صالح عليه السلام طلبوه من صميم واقعهم الحياتي، إذ طلبوا ناقة بمواصفات معينة. فجاءتهم الناقة بتلك المواصفات وهي شيء خارق للعادة ويسمى معجزة. ولكل رسول معجزته الكبرى الواضحة التي لا يكابر فيها إلا من صمم على العناد لأسباب قد تكون في كثير من الأحيان نابعة من بؤرة الخوف على فقدان الامتيازات المادية كالجاه والسلطان أو التجارة أو غيرها..

ففي عصر سيدنا موسى عليه السلام كانت دولة السحر في أوج قوتها، فلما جاءهم سيدنا موسى كان من الطبيعي أن يأتيهم بدليل صدق من جنس ما يهتمون به ويثابرون في كسب التفوق فيه، فجاءهم بالعصا التي لما ألقاها أبطلت السحر وبخرت أحلام فرعون وأبهتت السحرة، فلم يترددوا لحظة في الاعتراف بأن هذه العصا ليست من صنع بشر، وإنما هي من صنع خالق البشر، فأعلنوا إسلامهم فوراً متحدّين فرعون وبطشه وجبروته ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۞ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۞ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: 45 ـ 48] ولما جاء سيدنا عيسى عليه السلام وجد السباق بين الناس قد استقطبه مجال آخر هو مجال علم الطب فأتاهم بمعجزة من جنس ما برعوا فيه وأتقنوه وقدسوا من لمع اسمه في مجاله.

سيدنا عيسى عليه السلام استطاع بإذن الله تعالى أن يبرىء الأكمه والأبرص وأن يحيي الموتى. شيء خارق للعادة يدل على أنه

ليس من عمل الإنسان وإنما هو من عمل إله الناس.

ولما جاء سيدنا محمد ﷺ كان فن البيان شعراً ونثراً وسجعاً هو شغل الناس الشاغل، فجاء بالقرآن الكريم الذي سجد لبلاغته كل البلغاء وأذعن لفصاحته كل الفصحاء وعجز الجميع عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة من سوره. لكن الذين لم تكن لغتهم العربية أين يجدون الإعجاز في القرآن؟ أي أين يجدون الدليل على أنه منزل من الله تعالى، ولم يكن من تأليف محمد ﷺ. ثم إذا كان القرآن معجزة قرن الرسول ﷺ فهل هو معجزة القرن العشرين الذي نعيشه؟ وهل سيكون معجزة القرون التي ستأتي بعده؟

نعم القرآن سيبقى معجزة الدهر حتى يرث الله الأرض ومن عليها وسيبقى معجزة بالنسبة للناطقين باللغة العربية وبالنسبة للناطقين بغير العربية أيضاً. ذلك أنه بالإضافة إلى إعجازه البياني اشتمل على ما يلي:

أ - **الإعجاز العلمي**: إذ اشتمل على معلومات لم يتوصل إليها الإنسان في ذلك العصر مثل: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل: 88] ومثل أطوار خلق الإنسان...

ب - **الإعجاز الغيبي**: إذ أخبر القرآن بأشياء كثيرة بأنها ستقع في المستقبل ووقعت بالفعل وكان وقوعها مطابقاً لما أخبر به القرآن واكتفى هنا بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا

﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ [الأنعام: 65]. سأل المسلمون رسول الله ﷺ: هل ستقع هذه الآية؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**أما أنها كائنة لم يأت تأويلها بعد**». فأكد أنها ستقع لكن في المستقبل عندما يعصي المسلمون ربهم.

والعالم الإسلامي الآن يعيش البعض من مأساة العذاب الذي وصفته هذه الآية الكريمة.

ج ـ **إعجاز الجدة**: فالقرآن كان جديداً كلما تلوته أحسست كأنك تتلوه لأول مرة، وهذا إعجاز يلمسه كل مسلم بنفسه.

د ـ **الروح الإلٰهية**: لمّا تقرأ القرآن تحس بأنه ليس من كلام البشر وإنه مطبوع بروح الخالق العزيز. إذن فدلائل صدق الرسالات تتمثل في كل ما أتوا به من معجزات أولاً، ثم هي تتمثل في أنهم يأتون بقوانين وتشريعات وأحكام وتوجيهات تتوجه دائماً إلى ما ينفع الناس دون أن تخفي وراءها نوايا استغلالية، ودون أن تكون مكرسة لخدمة أغراض شخصية، ودون أن يكون فيها شيء يخالف الفطرة الإنسانية فهذا التوافق العجيب والكامل مع فطرة الإنسان ومع ما يصلح حاله لا يمكن أن يصدر عن بشر. كما أن انتقاء الخطأ هو الآخر أمر يدل على الصدق، فعلى مدى التاريخ لم نسمع برسول وجه قومه إلى اتجاه اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي، وفشل ذلك الاتجاه وأفلس نتيجة خطأ أو سهو أو أي سبب آخر.

هذه كلها دلائل تتظاهر على أبراز صدق الرسالات السماوية.

4 ـ أما خصائص النبوة ومفهوم العصمة:

فبودي أن أوضح أن النبوة والرسالة بينهما عموم وخصوص فالرسالة أعم من النبوة لأن الرسول يتلقى الوحي من ربه ويؤمر بتبليغه إلى الناس. أما النبي فإنه يتلقى الوحي أيضاً لكنه غير مأمور بتبليغه. إذن فالرسالة أعم من النبوة كما قلت. لذلك نقول: كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً.

وبذلك يكون النبي إنساناً صالحاً أكرمه الله تعالى بالوحي، ولم يلزمه بتبليغه إلى الناس، والحكمة من ذلك يعلمها الله وبالإمكان أن نقول أن النبي داعية إلى الله يتوخى الأسلوب الفردي، بما له من إشعاع ناجم عن سلوكه المثالي وأخلاقه العالية ومنطقة الراجح الرصين، وأفكاره الصائبة، وهو أسلوب في الدعوة إلى الله له أهمية بالغة، وتأثير أكيد، ومردود جليل، ثم أن النبي لم يمنع من التبليغ عن الله فهو يستطيع أن يدعو وأن يجتمع بالناس وأن يوجههم وأن يقود حركات الإصلاح والتطهير.

أما الرسول فهو الذي أوحى الله إليه بشرع أي بنظام متكامل يشمل العقيدة والسلوك وأمره بتبليغه إلى الناس. والرسل الذين يجب أن نعرفهم بأسمائهم خمسة وعشرون رسولاً أولهم آدم عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ. وهم: آدم، نوح، إدريس، شعيب، ذو الكفل، الياس، اليسع، أيوب، إسحاق، صالح، يعقوب، هارون،

موسى، لوط، يوسف، زكريا، يحيى، هود، سليمان، داوود، إسماعيل، يونس، إبراهيم، عيسى ومحمد ﷺ.

ورسل الله تعالى كلهم يمتازون بالعصمة عن المعاصي وما العصمة إلا صيانة وحفظ من الله لهؤلاء الذين اصطفاهم لحمل رسالته وتبليغها إلى خلقه.

وهذه العصمة تبدأ من مرحلة الإعداد التي هي مرحلة الطفولة ومرحلة الشباب أيضاً، فكل الرسل عاشوا طفولة نظيفة وشباباً طاهراً نقياً، ولم يشاركوا أقوامهم في شيء مما كانوا يأتونه من المناكر وذلك بإلهام من الله تعالى وإقدار منه وتتواصل العصمة حتى نهاية حياة الرسول.

فسيدنا إبراهيم الخليل مثلاً من قبل أن يبعث يعني أثناء فترة صباه وشبابه لم يمل يوماً إلى عبادة الأصنام أو تقديسها أو حتى احترامها إكراماً لوالده الذي كان يصنعها ويبيعها. ومما يروى عن سيدنا إبراهيم في صباه أن أباه كان يكلفه ببيع بعض ما يصنع من أصنام. فكان يأخذها إلى السوق وينادي عليها قائلاً: «يا من يشتري ما لا يضره ولا ينفعه» وهذا من غير شك بإلهام من الله.

ثم إنه في مناسبة الاحتفال بأعيادهم التي يزورون فيها معابدهم ويقدمون القرابين لأصنامهم لم يكن سيدنا إبراهيم يشاركهم ذلك وكان حتى حين يدعى إلى مشاركتهم يقول: «إني سقيم» أي مريض وما ذلك إلا بحفظ وصيانة من الله تعالى.

وسيدنا يوسف عليه السلام كيف استطاع أن يقاوم إغراء امرأة عزيز مصر بعد أن غلّقت الأبواب ودعته إلى الخطيئة في تلك اللحظة التي تعربد فيها الجهالة ويطغى فيها الهوى ويسود فيها سلطان المادة يرى سيدنا يوسف عليه السلام برهان ربه. فيقول بملء فيه للشيطان لا وألف لا، ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: 23].

ورسولنا العظيم سيدنا محمد ﷺ الذي أغراه بعض أبناء عمومته بالذهاب معهم إلى إحدى دور مكة ليتفرجوا على حفلة عرس فيها دفوف تنقر، ومن غير شك خمر يشرب، وقد لا تخلو من نساء يغنين أو يرقصن، فما الذي حدث؟ محمد ﷺ وقتها صبي ربما لم يتجاوز عمره العاشرة. الذي حدث هو انه لم يكد يصل إلى الدار حتى استولى عليه نعاس عميق بحيث لم يتمكن من سماع ولا مشاهدة شيء، ولعل أحد أبناء عمومته قد أعاده إلى بيته وهو نائم. وما كان ذلك إلا بحفظ وصيانة من الله تعالى.

إذن فمفهوم العصمة يتمثل في عناية الله تعالى بمن يختارهم لأداء رسالاته عناية شاملة تحمي سلوكهم من الإنحراف وأخلاقهم من الفساد وأجسامهم من الأمراض المنفرة. وحياتهم من الأعداء الكائدين كما حفظ سيدنا إبراهيم من النار وكما حفظ سيدنا محمد من كل ما دبر له أعداؤه الحاقدون. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: 67] وهذه العناية تبدأ من يوم أن تلامس أجسادهم الطاهرة تربة الأرض، وأن أساسها بالنسبة للمجال السلوكي وكذلك المجال الأخلاقي هو الإلهام بحيث يميل إلى الخير بالفطرة ويرغب عن الشر بالفطرة.

صفـات الرسـل

الصفات الواجبة لهم عليهم السلام أربع وهي:

1 ـ **الأمانة**: ويعبر عنها بالعصمة وهي حفظ الله ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه ولو نهي كراهة أو خلاف الأولى.

فهم محفوظون ظاهراً من الزنى وشرب الخمر والكذب.. الخ ومحفوظون باطناً من الحسد والكبر والرياء.. الخ وهذا الحفظ شامل لكل مراحل حياتهم صلى الله عليهم وسلم. يبدأ من الولادة ويستمر حتى الوفاة فلا يقع منهم محرم ولا مكروه ولا خلاف الأولى إلا أن يكون للتشريع ولبيان الجواز فيصير وقتها واجباً في حقهم. كأن يتوضأ النبي ﷺ مرة مرة ومرتين مرتين وكأنه يشرب قائماً.

وحتى المباحات فلا تقع منهم على وجهها المباح بل تقع منهم على وجه التقوي على العبادات أو التشريع فأفعالهم دائرة بين الواجب والمندوب.

الدليل: دليل وجوب الأمانة في حقهم هو: أنهم لو خانوا بفعل

محرم أو مكروه أو خلاف الأولى لكنّا مأمورين به لأن الله أمرنا باتباعهم. وهو تعالى لا يأمر بمحرم ولا مكروه ولا خلاف الأولى لأنه يقول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: 28].

2 ـ **الصدق**: وهو مطابقة خبرهم للواقع ولو بحسب اعتقادهم كما في قوله ﷺ: «**كل ذلك لم يقع**» حين سأله ذو اليدين: (أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ حين سلم من ركعتين في صلاة الظهر. وصدق الرسل ثلاثة أقسام: صدق في دعوى الرسالة، وصدق في الأحكام التي يبلغونها عن الله تعالى، وصدق في الكلام العرفي.

والمراد هنا هو القسمان الأول والثاني أما القسم الثالث فهو داخل في الأمانة ودليله دليلها.

ودليل صدقهم هو: أنهم لو لم يصدقوا للزم الكذب في خبره جل وعلا لتصديقه لهم بالمعجزة النازلة منزلة قوله: صدق عبدي في كل ما يبلغ عني. وتصديق الكاذب كذب وهو محال عليه تعالى. وإذا استحال عدم صدقهم وجب صدقهم وهو المطلوب.

3 ـ **الفطانة**: النباهة واليقظة وحدّة الذكاء لإلزام الخصوم وإبطال دعاويهم الباطلة، والدليل على وجوبها لهم: آيات قرآنية كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: 83] وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]. وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

ومن لم يكن فطناً لا يمكنه إقامة الحجة ولا المجادلة وما ثبت لبعضهم ثبت لجميعهم لأن منصبهم يقتضي ذلك.

4 ـ **التبليغ**: أي تبليغهم لما جاؤوا به عن الله تعالى وهذه الصفة وضدها خاصة بالرسل أما الصفات الثلاثة السابقة فتشملهم وتشمل الأنبياء أيضاً. وما جاء به الرسل ثلاثة أقسام هي:

أ ـ ما أمروا بتبليغه.

ب ـ ما أمروا بكتمانه.

ج ـ ما خيروا فيه.

فالقسم الأول واجب في حقهم تبليغه والثاني واجب كتمانه وأما الثالث فلا يجب عليهم فيه شيء.

الدليل: إنهم لو كتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه لكنا مأمورين بكتمان بعض ما أوجب الله علينا تبليغه من العلم النافع، لأن الله أمرنا بالاقتداء بهم، وكتمان العلم النافع ملعون صاحبه.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: 159].

ويستحيل عليهم أي الرسل ضد هذه الصفات: الكذب والخيانة والبلادة والكتمان.

ما يجوز في حق الرسل

يجوز في حقهم صلى الله عليهم وسلم كل الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية كالشرب والأكل والمرض والزواج والنسيان بعد التبليغ لا قبله والنوم بأعينهم لا بقلوبهم وكالسهو للتشريع لأن سهوهم ونسيانهم من الله لا من الشيطان لاشتغال قلوبهم بربهم.

ولا يجوز في حقهم أي عرض من الأعراض المخلة بمنزلتهم العالية، وذلك كالجنون ولو كان خفيفاً وكالأمراض المنفّرة بكل أنواعها. وبالتالي فإنه يجوز على ظواهرهم ما يجوز على البشر مما لا يؤدي إلى نقص. وأما بواطنهم فمنزّهة عن ذلك لأنها متعلقة بربهم.

أولو العزم من الرسل

أفضل الرسل على الإطلاق هم أولو العزم وهم خمسة مرتبون كما يلي:

1 ـ سيدنا محمد ﷺ وهو أفضل خلق الله.

2 ـ سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ويلي سيدنا محمداً في الفضل.

3 ـ سيدنا موسى عليه السلام.

4 ـ سيدنا عيسى عليه السلام.

5 ـ سيدنا نوح عليه السلام.

وأولو العزم معناه أصحاب الصبر الذي لا ينفذ، فقد صبروا طويلاً، وتحملوا المشاق كثيراً، ولم يهنوا ولم يجزعوا ولم يضجروا من عناد أقوامهم ومكرهم.

ويلي أولي العزم في الفضل بقية الرسل الكرام ثم الأنبياء عليهم

السلام. وإذا أردنا معرفة مواقف بعض الرسل الذين لم يبلغوا مرتبة أولي العزم فلنذكر موقف سيدنا آدم عليه السلام الذي يقول عنه الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: 115] ولنذكر سيدنا يونس عليه السلام الذي يقول عنه الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87].

رسالة محمد ﷺ

رسالة محمد ﷺ كانت خاتمة الرسالات السماوية ومحمد ﷺ كان آخر رسول يرسله الله تعالى إلى خلقه. لذلك كان محمد ﷺ أكرم وأعظم وأتم وأكمل خلق الله لأنه الأسوة الخاتمة والنهائية التي: ستكون المثال والقدوة للبشرية على مدى ما بقي من عمر الدنيا.

ورسالة محمد ﷺ رسالة جامعة شاملة لكل ما يحتاج إليه الإنسان في حركته الوجودية، فهي المنهج الذي يضبط كل أبعاد وأهداف ومضامين ووسائل هذه الحركة، وهو منهج متجدد من تلقاء نفسه، أي لا يبلى على مر الدهور والعصور، وإنما يبقى دائماً المنهج الطلائعي الرائد الذي لا يضل من يتمسك به ولا يشقى من يتّبعه. ويبقى المنهج الذي لا بديل له ولا مثيل له، بحيث يكون كل من يُعْرِضُ عنه مُعَرَّضاً للهلاك والضلال والفساد وسوء الحال.

وهذا المنهج جاء لينظم البشرية بأكملها لأن رسالة محمد ﷺ

كانت رسالة عالمية شاملة، خاطب الله تعالى بها كل مخلوقاته أينما كانوا فوق هذه الأرض من يوم بعث الرسول إلى آخر يوم من أيام الدنيا، لذلك عزّز الله تعالى رسوله ببيّنة متجدّدة على مرّ الدهور لا تبلى ولا تنقضي عجائبها، وبينة الرسول ﷺ هي القرآن. والقرآن يتضمن في الوقت نفسه محتوى الرسالة فهو الرسالة وهو الدليل على صدق الرسول والرسالة لما تضمنه من أنواع الإعجاز، مثل الإعجاز البلاغي والإعجاز الغيبي والإعجاز العلمي وإعجاز الجدة والإعجاز النفسي، والدليل على شمول رسالة محمد ﷺ هو قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: 28] وقال ﷺ: **«بعثت للناس كافة»**.

البعث والثواب والعقاب

البعث قضية مرتبطة بالإيمان باليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر أمر متوقف على الإيمان بالحياة بعد الموت، والسؤال المطروح هو: هل الموت هو نهاية النهايات أم هو بداية حياة جديدة؟

ثم كيف تكون الحياة الثانية؟ أهي بالروح فقط؟ أم هي بالجسد والروح؟

ثم إذا تأكدنا من الحياة الثانية نجد أنفسنا أمام أسئلة أخرى منها: لم الحياة الثانية؟ وما علاقتها بالحياة الأولى؟ وهل للحياة الأولى تأثير على الحياة الثانية؟

لقد تأكد الإنسان اليوم بما لا يدع مجالاً للشك من أن الموت ليس نهاية، وإنما هو بداية لحياة جديدة، والأدلة على ذلك كثيرة وأبسطها وأيسرها فَهْماً دليل الحياة بعد النوم. ذلك أن النائم كالميت، يتوقف عن كل حركة إرادية ولا يبقى منه متحرّكاً إلا ما هو

غير إرادي كالقلب والرئتين والكليتين. . وهذه المتحركات صاحبها بعد النوم لا يشعر بحركتها على الإطلاق، لأنه قطع صلته بها فالنائم كالميت لأن النوم موت. يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى . . .﴾ الآية [الأنعام: 60].

وحياة الإنسان بعد النوم أمر يعيشه كل إنسان فنحن أثناء النوم نأكل ونشرب ونتكلم ونسافر ونغضب ونرضى ونكتب ونقرأ. . . كل ذلك يتم عن طريق الرؤى المنامية. فبأي قانون يتم ذلك كله؟

لا يوجد إلا قانون واحد يحكم هذه القضية هو قانون الحياة بعد الموت، لذلك فنحن نموت كما ننام، ونحيا كما نستيقظ، ونعيش بعد الموت كما نعيش أثناء النوم. أما قضية الغرض من الحياة بعد الموت، وهل للحياة الثانية علاقة بالحياة الأولى؟ إن الحياة الثانية امتداد للحياة الأولى والعلاقة القائمة بينهما تتمثل في أن الحياة الأولى مرحلة زرع وبذر وأن الحياة الثانية مرحلة جني وحصاد، وكل إنسان يجني ويحصد ما زرعت يداه، إن زرع خيراً حصد خيراً وإن زرع شراً حصد شراً.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7 و8]، فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا

عمل، والثواب والعقاب أمران مقطوع بهما، وهما يترتبان على عمل الإنسان في الدنيا.

هذا العمل الذي أحصاه الله على صاحبه بكل دقائقه وتفاصيله لا يضيع منه شيء، ولا يخفى منه شيء. يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: 18].

ويقول سبحانه: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

وكل إنسان سوف تشهد عليه أعضاء جسمه بما كان يعمل. أما كيف: فقد ثبت الآن أن عمل كل إنسان مسجل بالصورة والصوت على شريط مغناطيسي فضائي كوني وقد ثبت أن العلم بإمكانه استعادة بعض الأشرطة لمشاهدة وسماع ما هو مسجل عليها لكن الصعوبة الكبيرة التي اعترضت العلماء تمثلت في عدم معرفتهم للأماكن التي توجد فيها الأشرطة المطلوبة، والكون متسع بحيث لا يوجد جهاز قادر على البحث في أرجائه الشاسعة. يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 6 ـ 8] وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: 65].

إذن فنحن نؤمن إيماناً راسخاً لا يتطرق إليه شك بالبعث

وبالثواب والعقاب وإيماننا قائم على أساس أدلة يقينية من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله ﷺ، وقائم على أدلة عقلية أثبتها العلم الحديث.

والثواب نعيم يتمتع به الجسد والروح، والعقاب عذاب يسلطه الله على الجسد والروح معاً أيضاً. وثواب المؤمنين الجنة وعقاب الكافرين والمنافقين والعصاة النار.

كلمة التوحيد أجمع كلمة

إذا أطلقت كلمة التوحيد انصرفت إلى ما يعرفه كل موحد، لأنها شعارهم الرسمي، ونشيدهم اليومي، يرددونها بكرة وعشيا، قائمين وقاعدين وعلى جنوبهم، تنطقها ألسنتهم، وتهفو بها قلوبهم، وتهتز لها مشاعرهم، وتخشع لها أجسادهم، بها يعبدون ربهم، وبها يزكّون نفوسهم، وبها يعرجون بأرواحهم إلى خالقهم.

وكلمة التوحيد أعظم كلمة تنطقها الألسنة وتتشرب معناها العقول. يقول ﷺ **«أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله»**. (رواه ابن ماجه والنسائي وابن حبان وغيرهم) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: **«لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أوّلَ منك لما رأيت من حرصك على الحديث. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه»** (رواه البخاري).

وفي رواية لمسلم والترمذي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرّم الله عليه النار»**.

كلمة التوحيد إذاً هي: لا إله إلا الله فما معناها؟ وما أبعادها المضمونية؟ وماذا نعد لبنائها وأين وكيف نبنيها؟ وما هي أدلة إثباتها؟

1 ـ **أما معناها** فيستقطبه النفي والإثبات في تعاقب يجلّي الحقيقة المطلقة كما يجلّيها بعد ظلام الليل نور النهار، فلا إله ينفي الألوهية نفياً مطلقاً مؤبداً، لا إله من الأنس، ولا إله من الجن، ولا إله من الملائكة، ولا إله من الشموس والأقمار، ولا من البحار والأنهار، ولا من أي كائن من كائنات الأرض أو السماء، لا أمس ولا اليوم ولا غداً. فالنتيجة إن هذا الكون لا يوجد فيه إله على الإطلاق، فهذا ظلام الليل الذي يسبق انبلاج ضوء النهار. هكذا يبدو في الظاهر، لكنه في الواقع نور الحقيقة المطلقة تسطع شمسه في سماء العقول والقلوب لتكشف لها الحق حتى تراه حقاً ملء العين فتعرفه، وتُقِرُّ بِهِ، وتعتنقه وتمتصّ رحيقه، حتى تتشبع بأنواره الساطعة. ذلك أن نفي الألوهية نفياً مطلقاً يمثل الحقيقة في أجلى مظاهرها، وأنصع ألوانها، وأوضح صورها، لأنه لا إله على الإطلاق من بين هذه المخلوقات، فلا الشمس ولا القمر ولا البحر ولا النهر ولا كسرى ولا قيصر ولا الجن ولا البشر. ولا الملَك المنوّر إله يخلق ويأمر. لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل.

أتدرون ما هذه العملية النفيية الإطلاقية؟

إنها عملية تطهير للساحة الإنسانية التي ستقام عليها البنية الإيمانية، فهي بمثابة التهيئة والإعداد لمساحة الفضاء الذي ستشيد عليه قاعدة التوحيد، فما دام لا إله فإن الساحة ممهّدة وفارغة في كل أشكال وضروب الشرك، وبذلك تكون على أتم وأكمل الاستعداد لاستقبال الإلة الأوحد، فما هذه الألوهية التي نفيناها نفياً مطلقاً مؤبداً عن كل الكائنات الكونية؟ إن الألوهية تتجمع معانيها في قطبين اثنين هما:

1 ـ الخلق المطلق.

2 ـ الأمر المطلق.

وبذلك يكون الإله هو الخالق لكل شيء، بحيث لا يستثنى من خلقه أي شيء على الإطلاق. يقول جل جلاله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2] وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة: 4] وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: 102].

فلو استثنى من خلقه شيء ما كان إلاهاً، ولو قيل أن الجرثومة المجهرية فقط ليست من خلق الله لما صح أن نسميه الله، لأن الله لا بد أن يكون خلقه شاملاً محيطاً بكل المخلوقات مطلقاً إطلاقاً مؤكداً. ولا يكفي أن يكون الإله خالقاً، وإنما يجب أن يكون آمراً أيضاً، ومعنى ذلك أن الذي يخلق لا بد أن يجدد وظائف مخلوقاته،

وأن يعدّ المنهج الضابط لحركتهم في الحياة، ويهديهم إليه بالإلهام أو بالإعلام. الأمر الذي يجعل كل مخلوق من مخلوقات الله يتحرك في الحياة طبق المنهج الذي أعده له وأرشده إليه كما أسلفت بالإلهام أو بالاعلام. وتنفيذ منهج الله من قبل مخلوقاته هو التجسيد الحسّي لمعنى الألوهية. لأن الألوهية خلق وأمر. والأمر تطبيق وتنفيذ لإرادة الآمر الخالق، حتى البشر الذين يعصون الله ولا يستجيبون لأوامره ينفذون أمر الله ويطبقون منهجه، لأنه تعالى هو الذي أراد لهم أن يطبقوا جانباً من منهجه تطبيقاً إرادياً، يمكّنهم من الطاعة والمعصية مع تحمل مسؤولية ما يصدر عنهم. فطاعة هؤلاء تطبيق للمنهج، ومعصيتهم تطبيق للمنهج أيضاً، وعموم ذلك تحقيق لألوهية الله عز وجل الذي يقول: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54] وبذلك يكون الإله خالقاً لكل شيء واضعاً لمنهج مخلوقاته في صيغة أمر يتحتم تنفيذه وتطبيقه دون تردد ولا تلكؤ ولا عصيان أو تمرّد، وكما أسلفت حتى ما نراه من المعاصي البشرية إنما يحدث ضمن منهج الله الذي وضعه لعباده بإرادته وعلمه.

والسؤال هنا هو: هل من شيء غير الله في هذا الكون يتوفر فيه هذان الشرطان ليكون مؤهلاً لاعتلاء عرش الألوهية؟ ثم هل علمتم أو رأيتم مخلوقاً ادعى أن الخلق والأمر له، حتى الذين ادعوا الألوهية من البشر جمدت ألسنتهم في أفواههم عندما قيل لهم: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: 11]

وعندما قيل لهم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: 258].

هذا المفهوم الشرعي للألوهية، وإذا كان أجدادنا قد عبروا عنه بالطاعة. فقالوا: لا إله إلا الله أي لا طاعة إلا لله، فإنهم أصابوا كبد الحقيقة إذ اختصروا مفهومي الخلق والأمر وأدرجوهما ضمن مفهوم الطاعة. ثم إذا فرغنا من احتواء قطب النفي في كلمة التوحيد يبقى أمامنا قطب الإثبات، فبعد أن نفينا الألوهية عن كل الكائنات الكونية نفياً مطلقاً مؤبداً، وبعد أن طهرنا ساحة وجداناتنا وعقولنا وألسنتنا وسائر جوارح أبداننا من كل ضروب الشرك، أصبحنا مهيئين لإقامة صرح التوحيد فينا. وإذا كانت صيغة التطهير هي النفي المطلق، فإن صيغة البناء هي الإثبات المطلق، لذلك تأتي فوراً أثر النفي المطلق بالإثبات المطلق. فبعد لا إله يأتي إلاّ الله ـ هكذا بالتأكيد الجازم على معنى زائد على معنى الألوهية وهو معنى التفرّد والتوحّد والوحدانية، إذ لا يكفي أن نثبت الألوهية لله وحسب، وإنما لا بد من تأكيد انفراده بها، وما دمنا قد نفيناها عن سواه إطلاقاً، فقد أثبتناها له توحيداً لفظاً ومعنى، حيث جئنا بأداة الحصر وهي إلاّ، فكأننا قلنا نشهدك يا ربنا أننا ننفي الألوهية عن كل من سواك ونثبتها لك وحدك لا شريك لك. وما أكثر ما أكد الله عز وجل على هذا المعنى حتى تتمحض الألوهية في قلب الإنسان وعقله لله دون سواه.

فقد قال سبحانه آمراً رسوله محمداً ﷺ ومن ورائه كل المسلمين: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا

﴿شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162 و163] وقال جل جلاله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: 111] ويقول عز وجل: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: 16].

2 ـ **وأما أبعادها** فإن كلمة التوحيد كلمة تغطي عقائد الإسلام ومطلوباته كلها، وتحيط بها إحاطة كاملة، فما من مطلوب إيماني أو إسلامي إلا وكلمة التوحيد تتضمنه وتحتويه.

ذلك أن إثبات الألوهية لله دون سواه بمعنى الخلق والأمر، يعدّ المؤمن إعداداً كاملاً لاستقبال كل ما يأتيه من قبل الله استقبال المستجيبين الخاضعين الطائعين. فإذا جاء رجل وقال: إنني رسول الله إليكم، وقدم بين يدي ادعائه الرسالة دلائل وحججا وبيّنات تثبت بما لا يدع مجالاً للشك صدق هذا الرجل. أصبح من المحتوم على المؤمن بالله الموحّد له أن يصدّق هذا الرسول ويؤمن به أيضاً إيماناً يقضتيه إيمانه بالله. لأن إيمانه بالله يتضمن إيمانه بمنهج حركته في الحياة، وهذا المنهج سيصل إليه بالوسيلة التي يريدها الله، فإذا أراد أن يبلغك منهجه بواسطة بشر رسول وجاءك هذا البشر، وأقام لك الدليل القاطع على صدق رسالته، كان ذلك ملزماً لك بالتصديق والإيمان، ووقتها يَثْرَى شعار إيمانك، فبعد أن كان لا إله إلا الله فقط يصير: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ومن ثم تبدأ علاقتك برسول الله ﷺ علاقة تلق وتسليم

أساسها: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285] لأن الله تعالى يقول لك: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] ويقول جل شأنه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80] ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ . . .﴾ [النساء: 59] ومن هنا تصبح العلاقة القائمة بين المؤمن وبين الرسول لا يقف في طريق إطلاقها أخذاً وتسليماً واتّباعاً إلا شيء واحد هو: أن تستيقن من أن هذا الأمر أو النهي أو الحكم قاله رسول الله، فإذا صح لديك الخبر وتيقنت من صدقه، إما بالتواتر كما هو الشأن في القرآن الكريم، وفي عديد الأحاديث النبوية، أو بثقة المخبر، أو بتعدد مصادر الخبر أو بأي وسيلة من وسائل التحقيق حتى تجزم بأن رسول الله ﷺ قد قال هذا. فإذا تم لك ذلك، لم يبق لك إلا موقف واحد هو موقف التسليم والقبول والطاعة والامتثال والتطبيق، وكل ما يخدش في هذا الموقف أو ينال من صفائه وإطلاقه يعدّ خدشاً في أصل العقيدة، ونيلاً من صفائها وسلامتها وإطلاقها، ويعدّ ظاهرة مرضية تتطلب العلاج الفوري.

ذلكم أن مناقشة الأحكام والأوامر والتشريعات مناقشة نقدية أو انتقادية لا يعني إلا طفوّ العقيدة على سطح الريب، الأمر الذي يعكس عدم استقرارها وثباتها ورسوخها، ويعني أخيراً أن ما يسمى عند هؤلاء الناس عقيدة ليس بعقيدة، لأن العقيدة تَمّ انعقاد القلب والعقل عليها. وختم ذلك كله ختماً نهائياً لا رجعة فيه، فإذا تحرّك

العقل والوجدان للمناقشة كان ذلك دليلاً على أنهما فكّا الختم ونقضا العقد، وحوّلا العقيدة إلى مجرّد فكرة قابلة للنقاش، وللشيطان هنا دور في التلبيس على الناس.

إذ أنه يقول لهم: أنتم لا تناقشون أصل العقيدة وإنما تناقشون فقط بعض مقتضياتها، ومناقشة المقتضيات لا تنال من العقيدة شيئاً، وهذا تضليل محض، وبهتان سافر، لأن مناقشة المقتضيات تعني مناقشة الأصل الذي اقتضى وهو العقيدة. فلو اطمأنّت هذه العقيدة واستقرّت لأطمأن العقل والقلب إلى كل مقتضياتها ومستلزماتها واستقرا على ذلك. إذن فالإيمان بالله عز وجل يقتضي الإيمان بالرسول والإيمان بالرسول يقتضي الإيمان بكل ما يأتي به من الله.

فإذا جاء الرسول وقال: **«كتب الله عليكم خمس صلوات في اليوم تؤدونها في أوقات محددة وبكيفية معنية»**. ثم قال: **«صلوا كما رأيتموني أصلي»**. أصبحت الصلاة فرضاً مفروضاً علينا بأوقاتها وكيفياتها دون جدال ولا نقاش. ثم إذا قال لنا الرسول: **«إن الله يأمركم أن تؤدوا زكاة أموالكم على النحو الفلاني بالنسبة إلى المسكوبات الفلانية»**. صارت الزكاة كما أمر بها رسول الله ﷺ مفروضة علينا.

ثم إذا أخبرنا بشيء من عالم الغيب كوجود الجن والملائكة، وكإحيائنا بعد الموت وحشرنا إلى الله، وحسابنا أمام الله، ومرورنا على الصراط، وكالجنة والنار، ودخول الطائعين من المؤمنين الجنة،

ودخول الكافرين والعصاة المصرين النار، وكالقضاء والقدر وما إلى ذلك من الغيبيات.

إذا جاءنا الرسول ﷺ بهذا كله لا يسعنا إلا أن نصدق ونؤمن ونجزم، لأننا صدقناه ﷺ في واقع الشهادة ولا بد أن نصدقه في واقع الغيب، لأن صدقه ﷺ مطلق غير مقيد إذ أنه مؤيّد من قبل الله عز وجل بالأدلة والبراهين التي تقول بأفصح لسان وأوضح بيان: «صدق عبدي في كل ما يبلّغ عني».

يقول جل جلاله مؤكداً على ما جاء به رسوله محمد ﷺ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: 43 ـ 47] هكذا يؤكد جل جلاله على صدق رسوله ﷺ في كل ما جاء به على الإطلاق، فيقول: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: 43] ولو كذب علي في شيء مما جاءكم به لقطعت منه الوتين وهو عرق في القلب يجري منه الدم إلى العروق كلها، فقطع الوتين معناه الإهلاك. ووقتها لا يستطيع بشر منكم أن يحميه ويمنعه من العقاب، وهذا أبلغ تعبير عن صدق الرسول ﷺ صدقاً مطلقاً في كل ما بلّغ عن ربه، وبناء على ذلك أضحى التصديق والتسليم والتنفيذ والطاعة الكاملة فرضاً مفروضاً وواجباً محتوماً يقتضيه أيماننا بالله عز وجل، ولا بد من التأكيد هنا على أن مقتضيات الشيء هي بعض من الشيء، وبعض الشيء هو الشيء، لأن ما لا يكتمل الشيء إلا به يكون في منزلة الشيء كله. فكلنا نعلم أن المحرك مثلاً أو العجلات

بعض من السيارة، والحكم بوجود السيارة يقتضي وجود العجلات والمحرك، فإذا غاب المحرك أو غابت العجلات غابت السيارة، لأنه لا سيارة بدون محرك أو بدون عجلات، ومن هنا أصبح بعض السيارة ككلها، لأن هذا البعض لا يتحقق الكل إلاّ به.

والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره بعض من بنية الإيمان بالله، فإذا غاب شيء من هذا البعض غاب الإيمان كله، لأن نقض البعض يقتضي نقض الكل، إذ لا كلّ بدون البعض الذي يتوقف الكل عليه، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت الحرام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وبر الوالدين، والدعوة إلى الخير، كل ذلك بعض من الإيمان الذي إذا غاب كان غيابه دليلاً على غياب الإيمان أو ضعفه، ولهذا فإن كلمة التوحيد تشمل كل عقائد الإسلام ومطلوباته.

فقد روي عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ من قال: **«لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»**، قيل وما إخلاصها؟ قال: **«أن تحجزه عما حرم الله عليه»** (رواه الطبراني في الأوسط وفي الكبير) وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ قد اختصر الإسلام كله في قول لا إله إلا الله بإخلاص، ثم لما سئل عن الأخلاص قال: **«هو أن تمنعك وتحجزك كلمة التوحيد هذه عن كل شيء حرمه الله عليك»** وقوله ﷺ **«عما حرم الله عليك»** قول جامع يشمل المأمورات والمنهيات. أما المنهيات فأمرها واضح لأنها

وردت بصيغة «لا تفعل» وأما المأمورات فلأن كل مأمورية منهي عن تركه، والذي ينتهي عن ترك الصلاة يؤدي الصلاة أي يفعل المأمورية، والذي ينتهي عن عقوق الوالدين معناه يفعل المأمورية وهو برّهما. وهكذا نجد كل شيء أمرنا بفعله قد نهينا في الوقت نفسه عن تركه نهياً بالتنصيص أو بالاقتضاء، وبذلك يكون حامل كلمة التوحيد حاملاً للإسلام كله بعقائده ومطلوباته، فلنحملها مخلصين حتى نكون من أهلها الذين رضي الله عنهم، وألحقهم بالصالحين، وجعلهم مع الأنبياء والصدقين والشهداء المقرّبين.

3 ـ **ماذا نعد لبناء قاعدة التوحيد؟** كلنا يعلم أن أي بناء يقام لا بد له من فضاء مكاني ينتصب عليه يتناسب مع حجمه طولاً وعرضاً، وقاعدة التوحيد بناء ينسحب عليه قانون كل بناء. فيحتاج إلى فضاء مكاني لتشييد صرحه، وبما أن بناء قاعدة التوحيد هدفه احتواء الإنسان واستيعابه والأحاطة به، فإن الفضاء الذي يشاد عليه لا يكون أقل من الإنسان كله قلباً وعقلاً ولساناً وسائر الجوارح، وبذلك يكون الفضاء المكاني الذي ستبنى عليه قاعدة التوحيد يتمثل في قلب الإنسان وعقله ولسانه وسائر جوراحه. وهكذا يكون الإنسان كله فضاء لإقامة هذه القاعدة. ولا أرتاب في أن جميعنا يعلم أن أي فضاء نريد أن نقيم عليه أي بناء لابد من تهيئته وإعداده مسبّقاً، وذلك بتطهيره من كل المعوّقات والعقبات والمربكات، حتى تستوي أرضه ويطيب جوه ويصبح مستعداً لاستقبال ما سيبنى عليه.

هذا وإن فضاء عقولنا وقلوبنا وألسنتنا وسائر جوارح أبداننا معرّض للتلوث بما يزخر به المحيط العالمي من ضروب وألوان الشرك، ومن البديهي أن الشرك نقيض التوحيد، ولا يمكن الجمع بين النقيضين، لذلك تحتم تطهير فضائنا المطلق من الشرك المطلق بمختلف أنواعه ومظاهره، حتى يخلص فضاؤنا إلى توحيد الخالق.

وبما أن الشرك أنواع فإن الواجب يدعونا إلى تعقّبها نوعاً نوعاً، وإزالتها عن طريق الاجتثاث حتى يقطع دابرها بإذن الله.

وضروب الشرك لا تقل عن خمسة وهي:

1 ـ شرك الكفر.

2 ـ شرك الكبيرة.

3 ـ شرك الاحباط.

4 ـ شرك الطاعة.

5 ـ شرك الإصرار.

شرك الكفر: وهو الشرك الذي يعلن صاحبه صراحة بأن لهذا الكون أكثر من إله، ثم يسمي من يعتقد أنهم آلهة مع الله، ويتسمك بهذا المعتقد الفاسد ويدافع عنه ويحاول أن يقنع به غيره أيضاً، فاليهود مثلاً قالوا: عزير ابن الله. والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، وما معنى ابن الله؟ معناه أنه إله، لأن ابن الإله لا يكون إلاّ إلـٰهاً، كما أن ابن الملك لا يكون إلا ملكاً. فماذا قال الله عز وجل عن

هؤلاء وهؤلاء؟ قال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: 30].

قد يقال: إن الله لم يصرح بكفرهم في هذه الآية، وإنما فقط ضاهى قولهم بقول الذين كفروا من قبل، ثم شدد النكير عليهم بقوله قاتلهم الله، ثم وصفهم بالكذب والافتراء والضلال عن الحق والعدول إلى الباطل. فقال أنى يؤفكون. ولا شك أن مضاهاة قولهم بقول الذين كفروا من الأمم السابقة هو حكم عليهم بالكفر، لأنهم اشتركوا مع الكافرين في السبب، فلا بد أن يلحقوا بهم في الحكم لكن الله عز وجل صرح بكفر هؤلاء الناس في ثلاث آيات من سورة المائدة.

الآية الأولى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ ..﴾ الآية [المائدة: 17].

الآية الثانية: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾



[المائدة: 72].

الآية الثالثة هي: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73].

وما زال النصارى يقولون بالتثليث حتى اليوم. إذ يزعمون أن الآلهة ثلاثة: الله والمسيح وروح القدس ومنهم من يقول أن الآلهة الثلاثة هم: الله والمسيح وأمه مريم. وإلى هذا يشير قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 116 و117].

شرك الكبيرة:

وهذا الضرب من الشرك يؤدي إلى الكفر، ويؤدّي إلى غضب الله عز وجل وعقابه، لأنه إخلال فادح بعقيدة التوحيد التي بدونها يبطل أو يختل الإيمان ويضعف أو ينتقص، وكلنا يعلم أن رسول الله ﷺ لما سئل عن الإيمان هل ينقص أو يزيد قال: «**يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار**» وشرك الكبيرة يفضي إلى نقص الإيمان وضعفه، وبالتالي عجزه عن حمل رسالة الإسلام بما فيها من مطلوبات عملية تكليفية.

وهذا الضرب من الشرك يتمثل في اعتقاد المرء بأن غير الله له

تأثير في تصريف الأمور مع الله، لذلك يلجأ إليه ويستعين به وهو يعتقد أنه قادر على نفعه وقضاء حاجته، ويمثل هذا النوعَ من الشرك فئةٌ في المجتمع الإسلامي تعتقد أن الأولياء الصالحين يملكون القدرة على قضاء حوائجهم، وتلبية رغائبهم لذلك يتقدمون إليهم بالنذور والذبائح، ويحملون إلى أضرحتهم الهدايا، ويتوسلون إليهم لا بنية اتخاذهم وسيلة إلى الله فقط وإنما بنية اعتقادهم بأنهم قادرون على الفعل من دون الله. ولقد حارب رسول الله ﷺ هذا اللون من الشرك منذ فجر الإسلام، فقد قال له أحد المسلمين ذات يوم: ما شاء الله وشئت فقال ﷺ: «**أجعلتني لله نداً؟ قل ما شاء الله وحده**» (رواه الإمام أحمد) والند هو الشريك.

وقال أصحاب الرسول ذات يوم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال لهم: «**إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله**» (رواه الإمام أحمد والطبراني).

ثم تراخى الزمن، وتطورت الحياة، وجاءت الثورة العلمية الصناعية والتكنولوجية، وكشف الله للإنسان من أسرار خلقه الشيء الكثير، ونظر الإنسان إلى نفسه نظرة الغرور والاستكبار والإعجاب، ونظر إلى علمه نظرة الانبهار والتقديس، فظهرت في رحاب المجتمعات الإنسانية أيديولوجيتان تقدسان العقل والعلم، فتهافت الناس عليهما لما رأوا من عجائب العلم وإبداعات العقل، وانقسموا إلى فريقين. فريق اكتفى بالإعتقاد بأن العقل والعلم يخلقان مع الله، ويصنعان كصنع الله، وبذلك يكون هؤلاء قد أشركوا شركاً بلغ بهم

حد الكفر، إذ صاروا يعتقدون أن الله والعقل والله والعلم يصنعان معجزات الحضارة، بينما الحق الذي ينبغي أن يملأ قلوب المؤمنين يقول: ما من إبداع يظهر على يد الإنسان إلا وهو من عند الله، لأن هذا الإبداع كان بسبب العقل الذي وهبه لك الله، والعلم الذي علمك الله إياه، فالله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 4 و5] ويقول: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]. أما الفريق الثاني فقد أنكر وجود الله وآمن بالعقل والعلم وأعتقد أن لهما الخلق والأمر، وليس قبلهما ولا معهما ولا بعدهما فاعل في هذا الكون. وهؤلاء هم الذين فرحوا بما عندهم من العلم، فرح البطر والاستكبار والاغترار، وأصحاب الفريق الثاني شركهم ليس ملحقاً بشرك الكفر وإنّما هو الكفر نفسه.

شرك الاحباط:

أما شرك الاحباط فإنه شرك التوجه بالعمل الصالح لغير الله أو لله ولغير الله في الوقت نفسه، كأن يقول المرء: هذا العمل للوطن أو للأولاد أو للزوجة أو يقول: هذا العمل لله وللوطن أو لله وللعيال أو لله وللأرحام. وكل عمل توجه به المسلم لغير الله أو أشرك فيه أحداً مع الله فهو مردود عليه باطل من أساسه لا يقبله الله. يقول الله عز وجل مخاطباً رسوله الكريم ومن ورائه كل المسلمين إلى يوم الدين: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر: 65] ولنلاحظ قول الحق جل جلاله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ كيف جاءت كلمة الشرك مطلقة، تستهدف ألوان الشرك

وتشمل جميع ضروبه. يقول رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ولا تقولوا هذه لله وللرحم فإنها للرحم وليس لله منها شيء، ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله منها شيء**» (رواه البزار والبيهقي) وهكذا نرى أن كل عمل لا يكون مُمَحَّضاً لله يحبط ويرد على صاحبه ولا يقبل الله منه شيئاً.

روي عن طاووس قال: قال رجل يا رسول الله إني أقف المواقف أريد وجه الله وأحب أن يرى موطني. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110].

وقال الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري، وكان من الصحابة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا جمع الله الأولين والأخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك**» (رواه أحمد والترمذي وابن ماجه) ومن كل ما أسلفت يتبين أن هذا الضرب من الشرك خطير على مستقبل المسلم لأنه يحبط أعماله ويفسدها وبذلك تُرَدُّ عليه ولا يقبلها الله منه، وبذلك يصاب ـ عافى الله الجميع ـ بالإفلاس فيلقى ربه وما معه رصيد من العمل الصالح يقدمه بين يديه، ويضعه في كفة ميزانه، فتكون عاقبته الخسران المبين وقانا الله أجمعين.

يقول ﷺ: «**تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم**

القيامة في صحف مختّمة، فيقول الله: **ألقوا هذا واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: يا رب والله ما رأينا منه إلا خيراً، فيقول: إن عمله كان لغير وجهي، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي»** (رواه البزار والطبراني والبيهقي). ومن هذا الشرك ما يخفى على أصحابه فيستهينون به وقد يستنكرون أن نبّهتهم إليه، وأرى هذا اللون شائعاً الآن في مجتمعاتنا الإسلامية، ويتمثل في اتخاذ أنداد من دون الله، وإحلالهم منزلة لا تقل عن منزلة الله، وأفراغ فيض من الحب عليهم لا يقل عن حب الله، وكثيراً ما يكون هؤلاء الأنداد أبناء أو زوجات أو أصحاباً أو غيرهم. ولقد بين الله عز وجل حال هؤلاء الناس ووصفهم بالظالمين لأنهم أشركوا به، وأني لأستروح من سياق الآية الكريمة الآتية أن الله تعالى لم يعتبرهم مؤمنين، وتوعّدهم بالعذاب الأليم، بعد وصفهم بالظالمين، فقد قال جل جلاله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: 165].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**.

وهذا الضرب من الشرك ما كان بمثل هذه الخطورة إلا لأنه يفضي إلى شرك آخر أفظع هو شرك الطاعة الذي سنتحدث عنه مستقبلاً إن شاء الله.

شرك الطاعة:

ويسمى أيضاً شرك العبادة، لأن الطاعة عبادة والعبادة طاعة، فالله عز وجل عندما دعانا إلى عبادته أمرنا بالطاعة، فمن عبد الله أطاعه فيما أمر به وفيما نهى عنه، ومن أطاع الله فقد عبده.

ثم تأتي طاعة غير الله كطاعة الرسل، والعلماء والأمراء والأباء والأمهات وسائر الناس، هنا يأتي التفصيل الشرعي إذ أن طاعة الله مطلقة لا يقيدها قيد ولا يحدها حد، ولا يشترط فيها شرط، وكذلك طاعة رسول الله ﷺ، فقد عرفنا في مبحث الرسل أن الله تعالى أيدهم بالمعجزات التي تقوم مقام قوله تعالى: «صدق عبدي في كل ما يبلغ عني» فإذا قال لك الرسول: افعل كذا أطعه تكن عابداً لله تعالى، وإذا قال لك: لا تفعل هذا اجتنبه تكن عابداً لله أيضاً، لأن الرسول كما قال عنه ربه: لا ينطق عن الهوى أن هو إلاّ وحي يوحى، ثم إن طاعة الرسول المطلقة أمرنا الله تعالى بها أمراً صريحاً لا لبس فيه، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: 59] وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: 7] وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80].

إذن فطاعة الله ورسوله مطلقة غير مقيدة بأي قيد، لكن طاعة غير الله والرسول محكومة بشرط، ومقيدة بقيد لا بد من توفره وإلا تحولت إلى معصية توجب العقاب، وهذا الشرط سهل واضح يعيه كل عاقل هو: أن تكون طاعة غير الله والرسول في طاعة الله أمراً

ونهياً. بحيث إذا أمرك غير الله ورسوله بفعل شيء أو نهاك عن فعل شيء وكان أمره ونهيه مطابقين لأمر الله ورسوله ونهيهما، كانت طاعة هذا الأمر أو النهي طاعة لله، أما إذا كان الأمر أوالنهي مخالفين لأمر الله ونهيه فإن طاعتهما معصية لله، ولهذا فإن الله عز وجل عندما أمرنا بطاعة أولي الأمر منا، وهم الأمراء والعلماء جعل طاعتهم تابعة لطاعة الله ورسوله، فقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: 59] لم يقل الله وأطيعوا أولي الأمر منكم وإنما قال وأولي الأمر منكم. فجعل طاعتهم تابعة لطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**إنما الطاعة في المعروف**» (رواه أحمد) وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه. عن رسول الله ﷺ قال: «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**» (رواه أبو داود).

وهكذا تكون طاعتك لغير الله في طاعة الله طاعة لله، لأن غير الله أمرك أو نهاك بأمر الله ونهيه فأنت في الحقيقة طائع لله لا لمن أمرك أو نهاك، أما إذا أطعت أخا الإسلام غير الله في معصية الله فقد أطعت غير الله طاعة مباشرة، وقد أسلفنا أن الطاعة عبادة، وبذلك تكون قد عبدت غير الله ومن عبد غير الله فقد أشرك بالله.

وهذا الحكم لم يفلسفه عقلي ولم يبدعه فكري، وإنما أصدره الله جل في علاه، وأنزله في محكم كتابه الكريم الذي سيبقى كتاب الإسلام والمسلمين إلى يوم الدين.

اليهود والنصارى في فترات من تاريخهم ذهب بهم الزيغ والانحراف إلى حد إعلان الطاعة والامتثال لأحبارهم ورهبانهم، حتى وإن أمروهم بما نهاهم الله عنه، أو نهوهم عما أمرهم الله به. فقد كان هؤلاء الأحبار والرهبان يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ويخالفون أمر الله ونهيه، وكان اليهود والنصاري يسمعون ويطيعون. فماذا قال الله عنهم ـ قال سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31] لأنهم أطاعوهم في معصية الله، والطاعة عبادة، والعبادة للرب دون سواه. فلما أطاعوهم جعلوهم أرباباً من دون الله، روى الإمام أحمد والترمذي أن عديّ بن حاتم الطائي لما دخل على رسول الله ﷺ في المدينة وكان عدي نصرانياً في عنقه صليب وجد رسول الله ﷺ يتلو قول الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31] فقال عدي: إنهم لم يعبدوهم. فقال رسول الله ﷺ: **«بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتّبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»**.

وقال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنهم اتّبعوهم فيما حللوا وحرموا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة. 31].

وهكذا يتجلى أن شرك الطاعة من أخطر أنواع الشرك لأنه يؤدي إلى عبادة غير الله.

شرك الإصرار: والإصرار كلمة تطلق على التكرار والمداومة مع العلم والعناد. وهذا لا يكون إلا مع المعاصي والمنكرات، ولا يكون مع الطاعات والمبرّات، لأن تكرار الطاعة والمداومة على فعلها مع العلم بأنها طاعةٌ ومبرّةٌ وخيرٌ، عمل يسمى اعتصاماً والتزاماً لا إصراراً وانفصاماً. أما تكرار المعصية والمداومة على فعلها مع العلم بأنها معصية، ومع تلقي التحذير من مغبة الاستمرار في فعلها، فيسمّى إصراراً وعناداً واستكباراً. سواء كانت المعصية التي يصرّ عليها العبد كبيرة أو صغيرة، لأنه لا صغيرة مع الإصرار إذ أن الصغيرة مع الصغيرة كبيرة.

والإصرار بهذا المعنى أصحابه أبوا أن يتوبوا ويستغفروا بعد ما نبّهوا وأمروا لعديد الأسباب إما لأنهم استكبروا واستهتروا، أو لأنهم ضعفوا واستسلموا، أو لأنهم نسوا واسْتَمْرَأوا. وكل أسباب الإصرار على المعصية تتجمع حول محور واحد هو محور طاعة غير الله في معصية الله. وقد أسلفنا أن طاعة غير الله في معصية الله شرك بالله لا يغفره الله. لأنه جل جلاله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا. . .﴾ [النساء: 116].

وهنا قد يسأل أحدنا فيقول: كيف يكون الإصرار على المعصية طاعة لغير الله في معصية الله؟

فنقول له: إن الإصرار على المعصية نابع من هوى في النفس يدفع الإنسان إلى فعل المعصية، ويلح عليه باستمرار ليصرّ عليها ويعاود فعلها، وهو في كل مرة يسمع ويطيع ويستجيب لهواه في معصية خالقه ومولاه، وقد عرفنا سابقاً أن الطاعة عبادة، وأن العبادة لا تكون إلا لله، لذلك فإن من أطاع هواه في معصية الله فقد اتخذه إلهاً يعبده من دون الله، وأي شرك أفظع من هذا الشرك؟

والحكم بأن من أطاع هواه في معصية الله فقد اتخذه إلهاً يعبده من دون الله أصدره الله عز وجل. يقول سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 43 و44].

ويقول جل جلاله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23].

ثم يقول جل شأنه مبيناً عاقبة المصرين على المعصية، الذين اتخذوا إلٰههم هواهم، ومبيناً في الوقت نفسه عاقبة المعتصمين بأوامر الله ونواهيه الناهين لأنفسهم عن الهوى.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ * فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ

﴿مَا سَعَىٰ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ * فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 27 ـ 41].

وروي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما تحت ظل السماء من إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع»** (رواه الطبراني وابن أبي عاصم).

ومن كل ما أسلفت يتبين أن الذين يصرون على فعل المعصية صغيرة كانت أو كبيرة مشركون بالله لأنهم عبدوا هواهم وأطاعوه واتخذوه إلهاً من دون الله، حتى صارت أوامره ونواهيه دينهم الذي يدينون به وشريعتهم التي يتّبعونها.

ولا شك في أن تردّي الفرد أو المجتمع في مثل هذا الدرك الأسفل من الحيوانية والأنانية والشهوانية يقوده إلى الدمار، ويقضي عليه بالبوار، لأنه يصبح إنساناً أو مجتمعاً بلا ثوابت قيمية، يضرب في الأرض على غير هدى، ويميل حيث مال هواه، وهو يتغنى بالشعارات، ويرفع اللافتات، ويدعي أنه تسنم أعلى الدرجات، ومن ثَمَّ يبدأ في التآكل والهبوط حتى ينهدّ وينهار، بعد أن يغرق في خضم الشقاوة والتعاسة والدمار، ولكي نتصور بعمق مأساة المجتمعات الأهوائية، أضع بين أيديكم هذه الأطوار المَرَضِية التي يمر بها في مسيرته التدميرية.

ذلك أن الإصرار على المعصية يقوده إلى استصغارها حتى ولو

كانت كبيرة، الأمر الذي يجعله يرى الجمل ذبابة، والذبابة بعوضة، والفواحش ما ظهر منها وما بطن توافه لا قيمة لها. وإلى هذا الحد يصل هؤلاء الناس إلى منزلة المنافقين الذين لا يقيمون لذنوبهم وزناً.

يقول عنهم رسول الله ﷺ: **«المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره»** (رواه البخاري والبيهقي).

ومرحلة الاستصغار هذه تقود إلى مرحلة التطبيع ـ أعني تطبيع الخطيئة ـ إذ أن المصرّ المستصغر يحوّل ذنبه إلى شيء طبيعي عادي مألوف، يمارسه كل يوم دون شعور بالحرج أو الإثم، ودون خوف من ردود فعل من أبناء المجتمع.

ثم إن مرحلة التطبيع تقود إلى مرحلة الشعور بالارتياح والرضا عن النفس والإحساس بالانتصار والتحدّي.

ثم تأتي مرحلة الاعتزاز والافتخار والزهو، والإحساس بالزّعامة والطلائعية التي تدفع إلى التبشير والدعوة وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.

وأخيراً نصل إلى مرحلة تشريع الخطيئة، أعني المرحلة التي يصبح فيها الذنب مشروعاً متردّداً بين المباح والواجب، نَعَمْ الشيء الذي حرمه الله يصل المجتمع الأهوائي إلى جعله واجباً شرعياً أو على الأقل مباحاً فعله، ومن ثم تبدأ أخطر مرحلة في تاريخ

المصرّين على المعاصي وهي مرحلة إباحة ما حرم الله وتحريم ما أحلّ الله، وانتهاك شريعة الله باسم الشريعة نفسها، إذ أنهم يدّعون أن لهم في الشريعة قراءاتٍ حديثةً، تجعلها تتكيّف مع روح العصر ـ هكذا ـ الشريعة تتكيّف ولا تكيّف، فكأنها من أمسّ الحاجة إلى الناس لتعيش بهم، وكأنّ الناس أغنياء عنها ولا حاجة لهم بها، لذلك عليها أن تتكيّف مع أهوائهم حتى تحظى برضاهم وقبولهم، ثم يقولون هذا ما أمرنا الله به.

يقول الله عز وجل عن هؤلاء: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28].

مسالك تشريع الخطيئة:

ولقد سلك المشرّعون للخطيئة سبيلين هما:

1 ـ سبيل التأويل.

2 ـ سبيل التعليل.

أما التأويل فمعناه أنهم عمدوا إلى نصوص الكتاب والسنة ولَوَوْا أعناقها وَأَوَّلُوهَا وفق أهوائهم، تأويلاً يخدم أغراضهم في تشريع الذنوب وتحليل الحرام وتحريم الحلال، وهؤلاء هم الذين يقول عنهم الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ

ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 7].

وأما التعليل فيعني أن تشريع الأحكام يتم عن طريق علل وحجج معقلنة ممنطقة تجعل السامع يقبلها ويرتاح إليها، ويطمئن نفسه بها، ويعتبرها من شرع الله.

ومن أبرز أبواب التعليل التي فتحها علماء أصول الفقه باب المصالح المرسلة، فقد اعتبرها بعضهم مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، وكلنا يعلم أن مصادر التشريع هي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وألحقوا بها مصادر أخرى هي: الاستحسان، والمصالح المرسلة، والاستصحاب، والعرف، وشَرْع مَنْ قبلنا، ومذهب الصحابي.

والذي يعنينا اليوم من هذه المصادر الملحقة هو المصالح المرسلة لأنه يعتمد في تشريع الأحكام على تعليل قابل للنقاش، وقابل للخطإ، وقابل للتلاعب بشرع الله، إذا لم تتخذ كل احتياطات الصيانة، لذلك رفض فريق من العلماء هذا المصدر لسببين هما:

1 ـ إن التشريع الإسلامي راعى كل مصالح الناس بنصوصه وبما أرشد إليه من القياس، والشارع لم يترك الناس سدى، ولم يهمل أية مصلحة من غير إرشاد إلى التشريع لها، فما من مصلحة إلا ولها شاهد من الشارع باعتبارها، والمصلحة التي لا شاهد لها وَهْمِيَّةٌ لا يصح بنا التشريع عليها.

2 ـ إن التشريع بناء على مطلق المصلحة فيه فتح باب لأهواء ذوي

الأهواء الذين لا يخافون الله، فهؤلاء قد يغلب عليهم الهوى والغرض فيتخيّلون المفاسد مصالح، وبذلك يجترئون على الله ويحلون الحرام ويحرمون الحلال. فما هي المصالح المرسلة؟ وما هي أدلة القائلين بها؟ وما هي الشروط التي يشترطونها؟

أما المصالح المرسلة: فمعناها، المصالح المطلقة، أي التي لم يقيدها كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ بحكم يجعلها حلالاً أو حراماً ويجعلها معتبرة أو ملغاة. ومثال ذلك: اتخاذ السجون في عهد الصحابة، فهذه مصلحة مرسلة لا نجد نصّا في الكتاب أو السنة باعتبارها أو إلغائها فاعتبرها الصحابة واتخذوا السجون لردع الظالمين.

وكذلك ضرب النقود اعتبره الصحابة مصلحة مرسلة معتبرة، وأقروها وضربوا النقود ليتعامل بها الناس في حياتهم اليومية تحقيقاً لمصالحهم وتسهيلاً لتعاملهم.

وأما أدلة القائلين بها: فدليلان هما:

1 ـ إن مصالح الناس تتجدّد ولا تتناهى، فلو لم تشرع أحكام لما يتجدد لعطّلت كثير من المصالح.

2 ـ من استقرأ تاريخ الصحابة والتابعين يتبيّن أنهم شرعوا أحكاماً كثيرة لتحقيق مطلق المصلحة. فأبو بكر الصديق رضي الله عنه جمع الصحف المفرّقة التي كانت مدوّناً فيها القرآن، وحارب مَانِعِي الزَّكَاةِ واستخلف عمر بن الخطاب.

وعمر بن الخطاب وضع الخراج، ودوّن الدواوين، واتخذ السجون. . الخ وعلي بن أبي طالب حرق الغلاة من الشيعة والروافض. . الخ.

يقول القرافي: «إن الصحابة عملوا أموراً لمطلق المصلحة لا لتقدم شاهد بالاعتبار». وقال ابن عقيل «السياسة كل فعل يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي».

وأما الشروط التي يشترطونها: فثلاثة وأنا أضيف إليها شرطاً رابعاً: لقد احتاط الذين يحتجون بالمصالح المرسلة للاحتجاج بها حتى لا تكون باباً للتشريع بالهوى والتشهي، ولهذا اشترطوا في المصلحة المرسلة شروطاً ثلاثة:

أولها: أن تكون مصلحة حقيقية وليست مصلحة وهمية، ومعنى ذلك أن يتحقق العلماء أن تشريع الحكم في الواقعة يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً، وأما مجرد توهّم أنّ التشريع يجلب نفعاً، فهذا لا يصح أن يبنى عليه حكم شرعي على الإطلاق.

وثانيها: أن تكون المصلحة عامة وليست مصلحة أشخاص أو فئات من المجتمع الإسلامي، لذلك نقول: لا بد أن تكون الأحكام لمنفعة جمهور المسلمين.

ثالثها: أن لا يعارض هذا التشريع لهذه المصلحة نصّاً من الكتاب أو السنة وأن لا يعارض الإجماع أيضاً.

رابعها: أن لا يُصْدِرَ الحُكْمَ الشَّرْعِي فردٌ ولا فئة قليلة من علماء المسلمين، وإنما يتكفل بذلك مجمع فقهي يمثل المسلمين في كل أصقاع المعمورة، ويكون بمثابة برلمان شرعي إسلامي لا حقّ لغيره في إصدار الأحكام لكن من حق العلماء في العالم الإسلامي أن يقدموا إلى هذا المجمع مقترحاتهم وبحوثهم ودراساتهم ليستعين ويستنير بها ومن ثم تكون أحكام هذا المجمع الفقهي ملزمة لكل المسلمين.

هذا ولا بد أن تمنح لأعضاء المجمع الفقهي حرية العمل، وبذلك تكون المصالح المرسلة التي يقدرها مصالح معتبرة في الشريعة وتصدر بشأنها الأحكام، وبهذا نكون قد طبقنا أمر الله تعالى عندما دعانا إلى احترام الاختصاص احتراماً يؤمّن لنا السّداد إن شاء الله. فقال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122].

الفتاوى أصبحت تصدر بلا حرج حتى عن العامي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهو يصدرها باسم المصلحة. هذا بالإضافة إلى فتاوى أدعياء العلم، ولا ننكر عليهم علمهم في مجالات اختصاصهم أمثال المهندسين والأطباء والأساتذة في علوم الرياضيات والتاريخ والجغرافيا والفلسفة. كل هؤلاء تصدّروا للإفتاء وإصدار الأحكام المصيرية باسم الشريعة الإسلامية، ومن منطلق مصلحة المجتمع، والغريب أنهم يفعلون ذلك وأفضلهم لا يعرف من القرآن إلا اسمه، ولا من السنة إلا أنها كلام الرسول، ولا من أصول الفقه الإسلامي

إلا أنه يسهر على تطبيق الشريعة بما ينفع الناس في دنياهم وأخراهم، ثم الأغرب هو أن تردّ وترفض فتاوى أهل الاختصاص، وتنتقد وتهاجم علانية، حتى ولو كان الذي أصدرها المفتي الرسمي للجمهورية لأن فتواه لم توافق أهواءهم ولم تخدم أغراضهم، لذلك أحذر الذين يتهافتون على الفتوى بغير علم، وأقول لهم اتقوا الله واحذروه وراعوا حرمة الإسلام كما راعيتم حرمة كل اختصاص في علوم الدنيا، فنحن مثلاً لا نرى ناساً من غير أهل الاختصاص يدّعون المعرفة في علم الكيمياء ولا الفيزياء ولا الحساب ولا الطب، ولا نرى ناساً يفتون في مجالات تلك العلوم، فلماذا نراهم لا يتورعون عن الإفتاء في مجال التشريع الإسلامي، فهل أصبحت لتلك العلوم حرمة تفوق حرمة الإسلام؟ أنا لا أقول هذا وإنما أقول: الإنسان المسلم في حاجة إلى توعية إيمانية وترشيد إسلامي، حتى يسمو إلى مستوى احترام نفسه باحترام دينه وشريعة ربه.

وبهذا نكون قد أعددنا الفضاء الذي سنقيم عليه قاعدة إيماننا بتطهيره من كل ضروب الشرك وأشكاله، وما ذلك إلا لأن الإيمان والشرك نقيضان لا يجتمعان ولا يلتقيان، إذا حضر أحدهما غاب الآخر، وإذا غاب أحدهما كان غيابه دليلاً على حضور الآخر، وعلى قدر تمكّن الإيمان من القلب وانتشاره في أرجائه وتجذّره في أعماقه يكون انتفاء الشرك وانقطاع دابره وزوال كافة ألوانه، وعلى قدر حضور الشرك في أي صيغة من صيغه يكون نقص الإيمان لأن الشرك يقود إلى المعاصي والمعاصي لا يجتمع معها الإيمان في قلب

واحد، وإذا أردت تجسيم هذا المعنى فخذ كأساً واملأه ماء واعتبر الكأس قلباً والماء إيماناً، ثم خذ جسماً مادياً ـ قطعة سكر أو حصاة مثلاً ـ وضعها في الكأس. فسترى أن الكأس يخرج منه ماء على قدر حجم الجسم الذي وضعته فيه، فإذا توالت الأجسام على الكأس توالى خروج الماء منه حتى لا يبقى فيه إلا ما لا يروي عطشاً ولا يطفيء غلّة، وكذلك القلب كلما حلّ به ضرب من ضروب الشرك خرج منه على قدر حجمه من الإيمان حتى لا يبقى فيه شيء أو يبقى فيه ما لا يدفع ضراً ولا يجلب نفعاً. فاعمل أخا الإسلام على تطهير قلبك من ألوان الشرك، حتى تجد الفضاء الذي تبني عليه قاعدة عقيدة صلبة راسخة قادرة على حمل رسالة الإسلام تحقيقاً وتطبيقاً. واستعن بالله ولا تعجز.

التحـدي الأكبـر

إن ضروب الشرك التي استعرضناها تشكل تحدّياً أكبر للإنسان المسلم، لذلك فإن المطلوب منه هو أن ينتصر وأن يتجاوز تحديات الشرك، وأن يرفع راية التوحيد حسّاً ومعنى، وأن يخرج من محنة التحدّي سالماً غانماً بإذن الله.

كلنا نعلم أن من الناس من انهزموا شر هزيمة أمام تحديات الشرك فسقطوا بين مخالبه فمزقهم شر ممزّق، ورمى بهم جثثاً وأشلاء في مزبلة الجحيم، فضربت عليهم الذلة والمسكنة في الدنيا، وباؤوا بغضب من الله، ولهم في الآخرة عذاب عظيم، لأن المشركين بين خطرين مدمّرين هما: خطر الكفر وخطر الإفلاس. فسيلقون ربهم كافرين أو مفلسين، لأن عملهم الصالح قد أحبطه شركهم، وفي كلتا الحالتين فإن مصيرهم إلى نار الجحيم. وقانا الله أجمعين.

وأكتفي في هذا المقام بعرض هذا المشهد القرآني من مشاهد

القيامة وهو مشهد مفعم بالخزي والتقريع والإهانة والعذاب، يقول الله عز وجل:

﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ * قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ * فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: 22 ـ 35].

مشهد يخلع القلوب، ويذهل العقول، ويهدّ الأركان، ويدمّر البنيان، ويذر الحليم حيران. الله عز وجل يصدر أمراً بحشر المشركين الظالمين ونظرائهم وما كانوا يعبدون من دون الله، سواء كان المعبود مالاً أو ولداً أو جاهاً أو علماً أو هوى وشهوة. وقبل أن يأذن بإقافهم بين يديه جل جلاله يصدر قراراً يقضي بتوجيه هؤلاء المشركين نحو طريق جهنم. ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 23] لكن قبل إلقائهم في الجحيم قفوهم إنهم مسؤولون، أوقفوهم للسؤال والحساب والتقريع والتوبيخ إمعاناً في تعذيبهم وإيلامهم وزرعاً للحسرة والندامة في قلوبهم. فإذا وقفوا جميعاً قيل لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ لماذا لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم تزعمون في الدنيا؟ هؤلاء ساداتكم وكبراؤكم وأموالكم وأبناؤكم وأزواجكم وكل من اتخذتموهم شركاء لله، لماذا لا ينصرونكم ولا تنصرونهم؟ أما كنتم

تقولون نحن جميعاً منتصر؟ ثم يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ خاضعون لله طائعون منقادون لا يخالفونه ولا عنه يحيدون، بالأمس كانوا عتاة متمردين مستكبرين إذا قيل لهم اتقوا الله تأخذهم العزة بالإثم، وإذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون. واليوم أصبحوا طائعين منقادين لأنهم رأوا العذاب الأليم وأيقنوا بالهلاك المبين. ثم ينشب جدل بين هؤلاء المجرمين، عابدين ومعبودين فيتقاذفون بالتهم ويتراشقون بالشتائم، ثم يعلن الأرباب الوهميون أنهم لم يستعملوا سلطان القوة لأغواء ضحاياهم وإنما فقط أغروهم فانخدعوا لضعف إيمانهم ويقضي الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

هذه إحدى صور المهزومين في معركة تحديات الشرك، وصورهم في القرآن أكثر من أن تحصى وكلها تفيض إنكالاً وجحيماً وعذاباً أليماً. وإزاء هذه المشاهد نجد مشاهد المنتصرين وهي متعددة أيضاً، لأن من الناس من لم يضعفوا ولم يستكينوا ولم يركنوا، وبقوا ثابتين شامخين معتصمين بحبل الله مستمسكين بسنة رسول الله ﷺ، يوحّدون الله، ويعبدونه حتى أتاهم اليقين ومنهم من امتحنوا وابتلوا فصبروا، وضحوا بأعز ما يملكون في سبيل أن يعيشوا موحدين، ويلقوا ربهم موحدين، ويكفي أن أضرب لكم مثلاً واحداً للقوم الذين ثبتوا وصمدوا في وجه الضغوط والإغراءات واختاروا الله ورضاه، ولم يطيعوا أحداً في معصية الله. أنهم سحرة فرعون ـ الذين ما أن تبين لهم وجه الحقّ حتى خرّوا لله ساجدين ـ وقالوا آمنا برب العالمين، وبرسوله الكريم، فقال لهم فرعون وهو

غاضب ساخط: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 49 ـ 51].

هذا رغم ما وعدهم به فرعون من القرب والولاية والمال والقصور والحور وكل زينات الدنيا ومتعها. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: 113 و114] فلما رأوا آية الله الدالة على صدق رسالة موسى عليه السلام، وضعوا كل إغراءات فرعون وراء ظهورهم وخروا لله ساجدين، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، وحتى حين توعّدهم فرعون بالعذاب الأليم، معلناً أنه سيقطّع أيديهم وأرجلهم وسيصلّبهم في جذوع النخل، لم يضعفوا ولم يتراجعوا وإنما ثبتوا واعتصموا وقالوا لفرعون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: 72] وسحرة فرعون ليسوا مشعوذين يطوفون بين المدن والقرى يلاعبون الأفاعي والثعابين ويرقصون أمام الصبيان والعوام مستجدين. فهؤلاء لا يصلحون مثالاً ونموذجاً يضرب لمن تمسكوا بالإيمان، وآثروا ما عند الملك الديان، ووقفوا في وجه الطغيان. سحرة فرعون كانوا أرفع طبقات الأمة علماً وثقافة ومقاماً وحكمة، كانوا هم أهل الرأي والسياسة والإدارة والقيادة والسلطان، لأنهم هم المثقفون المتعلمون، وهم الأساتذة الجامعيون وهم القادة

المحنكون، وذلك لأن السحر على عهد فرعون لم يكن شعوذة، وإنما كان علماً وثقافة. ولهذا فإن السحرة حين فعلوا ما فعلوا كانوا يعرفون ما يفعلون، وكانوا على أعلى درجات الوعي والإدراك. وكان الشعب المصري في ذلك الوقت ينظر إليهم وينتظر مواقفهم ليقتدي بهم. ويمشي وراءهم ومن ثم فإن سحرة فرعون كانوا مثالاً إيمانياً ونموذجاً نورانياً يُحْتَذَى ويتّبع، ولو لم يكونوا كذلك لما نزل في شأنهم قرآن يتلى إلى يوم القيامة ليكونوا عبرة ونبراساً للعالمين إلى يوم الدين.

وقد يقال: إن موقفهم يوم الزّينة يدل على جهلهم وسذاجتهم وحمقهم، فما الذي جنته الدعوة إلى الله من عملهم الانتحاري؟

لقد قضى عليهم فرعون جميعاً، وعددهم لا يقل عن ثلاثين ألف ساحر وهنا يكفي أن نعلم أن موقف السحرة الفدائي أدى إلى إسلام أكثر من نصف مليون من الشعب المصري، حتى إن الذين خرجوا مع سيدنا موسى حين لاحقهم فرعون بجنوده وحاصرهم قبالة البحر بلغ عددهم أكثر من ست مائة ألف مسلم أعز الله بهم دينه وأيد بهم رسوله وأعلى بهم كلمته.

والمهم أخيراً هو أن لا تهزمنا أهواؤنا وشهواتنا، وأن لا تغرّنا دنيانا، وأن لا يخدعنا شياطين الإنس والجن، وأن نبقى على ولائنا لله، وأن لا نطيع في معصيته سواه، وأن نحيا أحراراً طلقاء لا عبيداً لشهواتنا، أسارى لأهوائنا، وأن نعيش موحّدين، ونموت موحّدين، ونلقى ربنا يوم نلقاه موحّدين، فبذلك فقط نكون حقاً مؤمنين.

أين وكيف نبني عقيدة التوحيد

أسلفت أن عقيدة التوحيد فضاؤها كُلُّنَا، لأننا مغمورون في أنوارها، والمغمور في الشيء يكون كله فضاء لذلك الشيء، لذلك أقول: لا بد من بناء هذه العقيدة في قلوبنا، وعقولنا وألسنتنا وسائر جوارح أبداننا. وبذلك يكون كل واحد منا توحيداً يتحرك في انسجام وتناسق وتناغم مع منظومة الكون الموحّد ذلكم أن الكون كله تعبير بأفصح لسان وأبلغ بيان عن وحدانية الملك الديان. كل شيء في هذا الكون نشيده الدائم «لا إله إلا الله» وسبحان الله وبحمده، والإنسان بعض من كلّ الكون. وقد شاء الله أن يمكنه من تطبيق بعض منهجه تطبيقاً إرادياً. فقال سبحانه في شأن هذا الإنسان: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29] وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: 256] فإذا اختار الإنسان سبيل الإيمان، وبنى شعاره في قلبه وعقله ولسانه وسائر جوارح بدنه، صار بعضاً منسجماً مع كلّ الكون وإلا - لا قدر الله -

يبقى نشازاً لا ينتظر إلا الإزالة والمحو. والسؤال الآن: كيف نبني عقيدة التوحيد في قلوبنا وعقولنا وألسنتنا وجوارح أبداننا؟

1 ـ **بناؤها في القلوب**: معناه أن كل واحد منا عليه أن يزرع أنوار التوحيد في قلبه حتى يغمره الضياء، فيرى ربه واحداً لا شريك له، يراه في الشمس والقمر، ويراه في النبات والشجر، ويراه في البحر والنهر، ويراه في السحاب والمطر، ويراه في كل ما ظهر واستتر. لكن كيف نزرع هذه الأنوار في قلوبنا ونحن نعلم أن الله عزّ وجل يقذفها في قلب من يشاء؟

هنا لا بد من تذكّر جدلية الوصول إلى المأمول. هذه الجدلية تتكون من خمس مراحل هي:

1 ـ لكي نعرف الشيء لا بد أن نصل إليه لأن المعرفة عن بعد لا تمكن من اكتشاف الحقيقة.

2 ـ ولكي نصل إلى الشيء يجب أن نسلك الطريق الموصلة إليه. أما القعود والتمنّي أو الضرب في الفضاء على غير هدى فلا يمكّنان من الوصول.

3 ـ ولكي نسلك الطريق الموصّلة إلى الشيء ينبغي أن نراها، حتى لا نضلّ ولا نسلك سواها.

4 ـ ولكي نرى الطريق لا بدّ أن يكون عندنا نور يكشفها لنا، لأن الرؤية عندنا دائماً مرتبطة بالنور الكاشف وبدون نور تنعدم الرؤية. هذه سنة الله فينا. لذلك تجدنا عند غياب الشمس

مصدر النور في الأرض، نحاول تعويضها بالبعض من وسائلنا الضعيفة، حتى نرى بعض ما نحب أن نراه.

5 ـ ولكي يكون عندنا نور لا بد من المجاهدة حتى نمتلكه ليشع في قلوبنا ويكشف لنا الطريق إلى ربنا.

وهذا ملخص ناموس الأسباب في هذه القضية الكبرى، لقد شاء الله أن تكون حركتنا في هذه الحياة محكومة بالأسباب، فإذا أخذنا نحن بأسباب الله مخلصين، أتمّ نعمته علينا، وجاءت النتائج كفلق الصبح المبين.

يقول جل جلاله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]. ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: 28].

ولننتبه إلى آية العنكبوت حيث يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ . .﴾ [العنكبوت، 69]. والجهاد في أعظم ميادينه يتمثل في مجاهدة النفس وترويضها وتوجيهها وتطويعها عن طريق التركيز والانصراف إلى الله ملء مساحة الزمان والمكان وحركة الأبدان. بحيث يجتهد الإنسان ويبذل كل ما يملك من قوة ليجعل نفسه مع ربه حيث ما كان وكيفما كان وفي كل زمان. فإذا روّض نفسه على هذا فصار لا يتحرك إلا وهو مع ربه. ولا يسكن إلا وهو مع ربه. ولا ينام إلا وهو مع ربه. ولا يستقيظ إلا وهو مع ربه. إذا فعل هذا وكان لا ينسى ربه طوال يومه وليله. فإن الله عز وجل قد

وعد عبده هذا بأن يهديه إلى سبيله، أي إلى الطريق التي تصله بالله، وتعرفه به، وتقرّبه منه، حتى يشع نور في قلبه يمكّنه من رؤية ربه في كل كائن من خلقه، ووقتها يذوق حلاوة الإيمان، فإذا ذاقها مرة، زهد في حلاوات الدنيا بكل أشكالها وألوانها.

لكن إذا نسي الإنسان ربه، واحتوته مظاهر الحياة غلّفت قلبه وأعمت بصيرته، وأضاعت عقله، فيصبح معيشاً لا عائشاً، ومُسْتَعْمَلاً لا مُسْتَعْمِلا، ومملوكاً لا مالكاً. لذلك أقول: إن الناس رجلان في الحياة، رجل أحاط بها وامتلكها واستعملها فوصل إلى ربه، وعرفه في كل كبير وصغير من خلقه، ورجل أحاطت به الدنيا فشغلته عن ربه فنسيه، وانشغل عنه بزينة الحياة الدنيا فأنساه الله نفسه، فكان من الفاسقين لذلك يقول جل جلاله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: 19] ويقول عز وجل في حديث قدسي: «يا دنيا من خدمنا فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه».

ثم تعالوا إلى آية الحديد التي يقول فيها سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ . . .﴾ [الحديد: 28].

الخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين، ثم نراه جل جلاله يقول لهم: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ مع العلم أنهم لو لم يكونوا مؤمنين برسوله ما كان ليناديهم بصيغة الإيمان. فما هو المطلوب منهم إذن؟ المطلوب هو التقوى بالتركيز الكامل على الإخلاص لله، وبالإيمان العملي بسيدنا رسول الله، وهو الإيمان الذي يملأ القلب

محبة، ويحمل صاحبه على الاتّباع الخَطّي، والاستجابة المطلقة، ومن ثم تأتي النتائج من عند الله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: 28].

النتيجة الأولى: مضاعفة الأجر مضاعفة تجعله يغطي ساحة الوجود الدنيوي والوجود الأخروي.

النتيجة الثانية: نور يقذفه الله في قلوب المؤمنين يهديهم فلا يضلون أبداً ويقومهم فلا يعوجون أبداً، ويصلحهم فلا يفسدون أبداً.

النتيجة الثالثة: مغفرة شاملة لذنوبهم حتى يلقوا ربهم وما عليهم ذنب.

وهكذا تجلّى لنا أن بناء عقيدة التوحيد في القلوب أمر لا يتطلب إلا قدراً من معاناة التركيز العقلي، والجهاد النفسي، وليست المعاناة إلا ترويضاً وتدريباً، قد يجد فيهما المرء بعض المشقة ابتداء. ثم يبدأ الشعور بالمشقة يتحوّل إلى إحساس بالمتعة والنعيم حتى يصير نعيماً لو اكتشفه الغارقون في خضم لذائذ الدنيا لجالدونا عليه بالسيف كما قال أحد العارفين بالله.

2 ـ **بناؤها في العقول:** كيف تبنى قاعدة التوحيد في العقول؟ ولماذا؟

من السنن المتعارفة لدى الجميع أن الذي يملك شيئاً يحرص على حفظه وصيانته والدفاع عنه بما لديه من الوسائل، بغضّ النظر عن أهمية هذا الشيء أو عدم أهميته. غير أن حرص الإنسان على

صيانة وحماية مملوكاته يتضاعف ويتعاظم بتضاعف وتعاظم أهمية المملوك، فكلما كان المملوك أغلى وأعز كلما كان الحرص على حمايته أكبر وأشد.

وإذا نظرنا إلى عقيدة المسلم وجدناها أعز وأغلى مملوكاته في الحياة، إذ أن كل المملوكات وسائل إلا العقيدة فإنها غاية، فنحن ما خلقنا لنملك الدور والقصور والذهب والفضة وما إلى ذلك مما يحرص الناس على امتلاكه، وإنما خلقنا ـ فقط ـ لنعبد الله رب العالمين الذي يقول وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] وما دمنا مخلوقين للعبادة وما دام رأس العبادة وسنامها توحيد الخالق، فإننا ما خلقنا إلا لتوحيد الخالق وبذلك تكون عقيدة التوحيد أعز مملوكاتنا في الحياة، ولذلك يجب أن نسخر كل ما لدينا من إمكانات لحفظها وحمايتها.

وإذا نظرنا الآن إلى واقع الحياة ألفينا الناس ثلاثة أصناف، صنف يملك وسائل حماية مملوكاته والدفاع عنها، وصنف يملك بعض الوسائل التي لا تفي بالحاجة، وصنف أعزل ضعيف لا يملك حولاً ولا طولاً. أما الصنف الأول فتراه ظاهراً على الأعداء، منيعاً من كل الأدواء عزيزاً مهيباً. مكانته تطاول الجوزاء. وأما الصنف الثاني فحاله لا يغبط عليه لأنه دائماً بين العز والإهانة وبين النصر والإستكانة وهو في مجال القيميات محطم مخذول، لأن هذا المجال لا يقبل التردّد ولا التعثّر، ولا يحتمل المراوحة ولا التداول. فهو مجال الثوابت ولا يقبل إلا النصر الدائم الثابت. فلا يصح أن

يكون فلان اليوم عفيفاً وغداً فاسقاً ولا يقبل أن يكون أمس مؤمناً واليوم منافقاً ولا يمكن أن يكون أحياناً موحداً وأحياناً مشركاً لأن مجال القيميات الثابتة لا يحتمل إلا النصر الدائم الثابت كما أسلفت. والصنف الثالث فهو صنف الأذلاء الصاغرين وصنف المهزومين الممحوقين وصنف الذين استسلموا للأعداء.

وأباحوا لهم كل اعتداء لأنهم لا يملكون ما به يحمون ما يُمَلَّكُونَ، لذلك انتهكت حرماتهم وهم يتفرجون. أو يصفقون ويباركون. ونحن المسلمين نجمع على أن أعز وأغلى مملوكاتنا عقيدة التوحيد، وكل أعدائنا يعلمون علم اليقين أن هذه العقيدة هي مصدر قوتنا وعزتنا ومنعتنا واغتنائنا وسيادتنا، ويعلمون أننا بها مجتمعون قلوباً قبل أن نجتمع أجساماً، وأن ربنا الذي وحدناه يقول مخاطباً رسوله الكريم محمداً ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: 62 و63]. لذلك سعى ويسعى هؤلاء الأعداء إلى زعزعة عقيدتنا وإلى إرباكها وإدخال الاضطراب عليها، وبغاية الوصول إلى تصديع البناء الذي يقام عليها. وهو بناء الإسلام بكافّة مطلوباته، وغاية غاياتهم هي إخراج المسلمين من الإسلام وإبقاؤهم بلا دين وهذه الغاية أعلنوا عنها صراحة في مؤتمر جبل الزيتون، الذي ترأسه رئيس المبشرين صموئيل زويمر حيث قال في خطبة الافتتاح مخاطباً المبشرين في كل مكان: «امضوا في طريقكم باركم الرب فقد حققتم في المسلمين ما أردنا تحقيقه فيهم. إننا لا نريد إخراجهم من الإسلام وإدخالهم إلى المسيحية وإنما نريد فقط

إخراجهم من الإسلام وإبقاءهم بلا دين. لقد أنشأتم جيلاً من شباب المسلمين لا يعرف الله ولا يهتم بعظائم الأمور، يلهث وراء المتعة وينفق ما لديه في سبيل اللذة. وإذا استمر حال المسلمين على هذا النسق فلن تقوم للإسلام قائمة بعد الآن...».

وهكذا يتجلى لنا أن الأعداء يستهدفون عقيدتنا قبل مالنا وأرضنا وخيراتنا، لأن الذي تجرده من عقيدته يصبح طوع إرادتك وملك يمينك، قابلاً للتشكيل والتلوين والتصنيع، تستطيع أن تصنع منه ما تريد بإمكانك أن تشكل منه فاسقاً أو منافقاً أو خائناً أو غادراً أو سفيهاً تافهاً أو عميلاً محترفاً، أو ما شئت من النماذج الوضيعة، لكن لا تستطيع ـ فقط ـ أن تصنع منه بطلاً فاتحاً أو إنساناً سوياً متوازياً. ولهذا فإن ربنا حذرنا من كيد الذين يستهدفون عقيدتنا، ونبّهنا إلى أن عداوتهم دائمة، إلى أن يحققوا فينا ما يريدون، أي إلى أن يخرجونا ـ لا قدر الله ـ من الإسلام ويبقونا بلا دين.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: 217] ويقول سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: 109].

وهكذا ترون أن الصراع قائم وأن القتال دائم إلى يوم القيامة، وأن النصر لمن يملك سلاحاً أمضى لذلك لا بد من أن نتسلح بما يضمن لنا الغلبة بإذن الله، وأن نعدّ على مر الأيام والشهور والعصور ما استطعنا من قوة للذود عن عقيدتنا، لأننا بها كائنون وبدونها لا نكون. ولأن أعداءنا لا يستهدفون أرضنا وأموالنا وأعراضنا بقدر ما

يستهدفون ديننا وعقيدتنا بشهادة ربنا عز وجل. ذلكم أن ربنا لم يقل: ود كثير من أهل الكتاب لو يستولون على دياركم وأموالكم، ولم يقل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يحتلوا أرضكم. وإنما قال في الآيتين السالفتين: «إنهم يريدون دينكم وعقيدتكم وإسلامكم وهو ما عبر عنه بكل صراحة ووقاحة صموئيل زويمر في مؤتمر المبشرين بجبل الزيتون.

فماذا نعد لحماية عقيدتنا من أخطار الغزو الإلحادي؟

إن السلاح هنا ليس مدافع ولا صواريخ ولا طائرات مقنبلة ولا رؤوساً نووية، وإنما هو أدلة عقلية وحجج منطقية علمية نبنيها في عقولنا لحماية عقيدتنا، لأن الذي يملك الدليل القاطع لا تقدر قوة تحت الشمس أن تجتث عقيدته أو تزعزعها أو تنال منها أي منال.

لذلك فإن أمضى سلاح ندافع به عن إيماننا هو سلاح الحجج العقلية العلمية، ذلكم أن الذين يغزوننا عقائدياً إنما يستخدمون الحجج والبراهين المعلمنة الممنطقة الملفقة المزيّنة ليخدعوا بها السذج العزل، فإذا وجدوا من يملك الحجة الأقوى والدليل الأقطع، ولوا على أعقابهم مدحورين خائبين. فالمعركة هنا معركة حجج وأدلة ومنطق علمي، لذلك لا بد أن نتسلح ونسلح أبناءنا بأقوى الأسلحة وأقطعها، ونحن نملكها وهي بين أيدينا، فليس المطلوب منا أن ننتحلها أو نزيّفها، وإنما المطلوب منا فقط أن نعرفها ونحملها ونستخدمها لنحقق الانتصار، ولنحمي الديار بإذن الله.

والأدلة العلمية المنطقية التي يجب آن نبنيها في عقولنا وعقول أبنائنا تتجدد صيغ طرحها وأشكال بُنَاهَا المادية مع ثابتية وحدتها المضمونية، لذلك توجّب علينا التوجه إلى تجديد الطرح، وتحديث الصياغة وتطوير العرض، لأن الأعداء ما انفكوا يجدّدون ويبتدعون ويفلسفون ويمنطقون، علّهم يحققون فينا ما يريدون. ونحن في عصر الإنفتاح والتواصل وإلغاء المسافات، يجب أن نكون أسبق إلى التجديد والتحديث والإبداع، حتى نغزو ولا نغزى ونجتاح بالحق ولا يجتاحنا الباطل، ولنعلم أن مجرد تماسكنا وحماية أنفسنا من غزو أعدائنا العقائدي يعد انتصاراً يمهد لانتصارات، تمكّن إن شاء الله من نشر عقيدة الإيمان وفضائل الإسلام بين أبناء الأنام، وإنّ أي ضعف يطرأ على عقيدتنا يمكّن الأعداء من تصديع بناء إسلامنا، ومن نشر رذائلهم ومفاسدهم بين صفوفنا.

إذن لا بد من العمل على بناء عفيدة التوحيد في عقولنا عن طريق بناء أدلتنا العقلية العلمية المنطقية، وهي السلاح الذي نذودُ به عن حياضنا ونرد به كيد أعدائنا، حتى لا نقع ـ لا قدر الله ـ فيما يسمى بالاستلاب العقيدي، الذي يجر حتماً إلى الاستلابين اللغوي والثقافي والذي يقود باستلاباته الثلاثة إلى تفتت الشخصية وانسحاق الهوية.

وأحب أن أشير هنا إلى أن سلاح الأدلة يجب أن يعمم بناؤه حتى يشمل كل طبقات الأمة، إذ لا فرق بين كبار المثقفين من حملة الشهائد الجامعيين وبين أنصافهم وبين الأميين الذين لا يقرأون ولا

يكتبون، غير أن سلاح كل طبقة يكون متناسباً مع مستواها العلمي والثقافي. المهم فقط هو أن لا تبقى طبقة من أبناء الأمة عزلاء مجردة من كل سلاح، لأن ذلك يتيح الفرصة للأعداء كي يستولوا على أبناء هذه الفئة منذ الجولة الأولى، لكن إذا كانت مسلحة ولو بأسلحة خفيفة وتقليدية متناسبة مع إمكاناتها، فإنها تستطيع أن تدافع عن نفسها ولو فترة قصيرة، تشغل أثناءها العدو ريثما يأتيها المدد من بقية فئات الأمة الأقوى تسلحاً والأغزر علماً.

وهنا يكفي أن أضرب بعض الأمثلة لما يمكن أن يملكه المسلم من حجج تثبّت عقيدته وتصونها: فعلماء الفلك والفيزياء والكيمياء مثلاً بين أيديهم قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30] وبين أيديهم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

ثم بين أيديهم مكتشفات العلم الحديث في هذا المجال ـ أعني ـ مجال خلق هذا الكون ويلخص الدكتور «موريس بوكاي» في كتابه التوراة والإنجيل والقرآن والعلم» ما اكتشفه العلم فيقول: «ويرى العلم أن العالم في الأزمان الغابرة جداً تكوّن من طبقة غازية مركبة أساساً من الهيدروجين وجزء من الهيليوم وهو في دوران بطيء. هذه الكتلة من الغاز المظلم انقسمت إلى عديد من الأجزاء ذات أبعاد وأحجام ضخمة قدرها العلماء بمعدل مليار إلى مائة مليار ضعف حجم الشمس الحالي الذي يساوي أكثر من 300000 ضعف

حجم الأرض وهي أرقام تبرز لنا أهمية أجزاء هذه الطبقة الغازية البدائية. التي انبثق عنها فيما بعد وجود المجرات ثم بانقسام جديد تشكلت النجوم، والأرض بخاصة انبثقت أيضاً من انفصال تم على امتداد زمني طويل انطلاقاً من التركيب الأولي الذي كانت عليه في البداية الطبقة الغازية الأساسية. والقول بأن الشمس قد تكثفت ضمن الطبقة الغازية الوحيدة، وأن الكواكب تكثفت كذلك في إطار طبقة غازية كانت تحيط بها أمر لم ينازع فيه أحد منذ ربع قرن..

وهنا يعرفنا العلم بالعصر الذي جرت خلاله التطورات الكونية التي سبق وذكرناها. فإذا كان التقدير التقريبي لوجود مجرتنا في عمق الزمن هو عشرة مليارات من السنين فإن افتراض تكون النظام الشمسي يمكن أن يكون بعد ذلك بخمسة مليارات من السنين أو أزيد قليلاً.

إن الاختصاصيين من العلماء وصلوا بالنسبة لتكوين النظام الشمسي إلى درجة مرتفعة من العلم عن الامتداد الزمني العام، والذي يمكن تلخيصه فيما يلي:

تكثف ثم تقلص طبقة غازية مع دوران ثم انفصال إلى أجرام كان منها الشمس والكواكب السيارة ومنها الأرض هذه المكاسب العلمية عن الطبقة الغازية المظلمة الأولى وطريقة انقسامها إلى كمية عجيبة من النجوم تجمعت في مجرات، لا تدع مجالاً لأدنى شك في صدق تعدد العالم، ولكنها لا تزال غير مالكة لأية أداة لإثبات وجود ما يشبه الأرض في الكون من قريب أو بعيد. إن العلماء

المعاصرين يفترضون وجود كواكب مماثلة للأرض في الكون. . . يقول الحق سبحانه:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى: 29].

ويمضي الدكتور في بيان ما اكتشفه العلم الحديث في مجال خلق الكون وفي مدى التوافق بين هذه المكتشفات وبين ما ورد في القرآن الكريم مقارناً بين ما ورد في القرآن عن موضوع خلق الكون وبين ما ورد في التوراة مبرزاً الاختلاف العميق بين العلم والتوراة والتوافق الكامل بين العلم والقرآن. الأمر الذي يدل على أن القرآن من عند الله خالق هذا الكون وعلى أن التوراة كتاب حرفه اليهود واختلقوا فيه ما أرادوا بنية خدمة السيادة اليهودية على الأرض.

يقول الدكتور بوكاي: «إن نص التوراة الذي هو بين أيدينا اليوم قد جاءنا في هذه الوقائع بتحقيقات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية، وكيف ندهش من هذا عندما نعرف أن النص الكهنوتي لخبر الخلق في التوراة كتب من الكهنة الذين كانوا في زمن النفي إلى بابل، والذين كانت لهم أهداف نظامية حققوها. . .

ثم يقول: «إن الاتهامات التي يوجهها اليهود والنصارى إلى محمد بأنه نقل الأخبار التوراتية ليس لها سند، فكيف يمكن لرجل مضى على ظهوره أربعة عشر قرناً تقريباً أن يصحح الخبر في هذه النقطة بالذات وهي جزء من مجموعة أخطاء من وجهة النظر

العلمية، ويبدلها من عندياته بمعطيات أظهر العلم نهائياً صحتها في هذا العصر؟

إن مثل هذا الافتراض غير ممكن لأن القرآن قد أعطى عن الخلق خبراً يختلف كل الاختلاف عما أعطته التوراة.

ثم يقول: «وإذا كانت أساطير الخلق قد أثيرت هنا فللتنبيه على الاختلاف العميق الموجود بين الأخبار القرآنية عن الموضوع المنزهة عن التفاصيل النابعة من الهوى، التي رافقت هذه المعتقدات، والموسومة على العكس باعتدال عبارتها الاخبارية وانسجامها مع معطيات العلم الحديثة، وهكذا فإن أخبار القرآن عن الخلق وقد اتسمت بهذه الخصال منذ أكثر من أربعة عشر قرناً تبدو خالية من أية مداخلة بشرية (ص133 ـ 134).

ثم ننتقل إلى علماء الطب فنجدهم يقفون بين يدي الآية الثانية عشرة وما بعدها من سورة المؤمنون مذهولين لأنهم يجدون فيها تفاصيل عن الأطوار التي يمر بها خلق الإنسان في رحم أمه قد أكدها العلم تأكيداً قطعياً إذ أنه رآها عبر وسائل الرؤية رأي العين مرحلة مرحلة، فكانت كما بينها القرآن، فمن أين جاء بهذا العلم سيد الأنام منذ ألف وأربع مائة عام، والعلم وقتها متخلف والناس نيام. إن هذا العلم لا يمكن أن يحصل عليه بشر في ذلك الزمان. إلا إذا أوحى به إليه عالم الغيب والشهادة العزيز العلام، وبذلك تكون هذه الحجة مثبتة لوجود الله الواحد، مجذرة لعقيدة التوحيد في قلب المؤمن بأقوى دليل يملأ عقله وعياً واقتناعاً. ووحدانية

الخالق في هذا الدليل ناجمة عن تفرده بهذا العلم في ذلك العصر بحيث لم يسبقه إليه أحد، ولم يشاركه فيه أحد، لأنه واحد لا شريك له. وآيات المؤمنون أصبحت شهيرة في جامعات الغرب (أمريكا وكندا) لأن البروفسور «آل كيف مور» ألحقها بكتابه المدرسي الذي يدرس في جامعات الدولتين الأمريكية والكندية مع تفاصيل وإضافات أخرى من القرآن والسنة، وهذه الآيات العظيمة هي قوله جل جلاله:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 12 ـ 14].

ثم إذا انتقلنا إلى علماء البحار والمحيطات نجدهم يقفون خاضعين خاشعين أمام قول رب العالمين:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: 19 و20].

ونجد عدسات أجهزة التصوير وآلات التحليل تعطي نتائج مذهلة في هذا الصدد حيث أثبت العلم أن البحرين يختلفان في طبيعة التكوين ويختلفان في الموجودات الحيوية وإنهما متصلان ببعضهما اتصالاً مباشراً وأنهما رغم ذلك لا يمتزجان ولا يختلطان ولا يطغى أحدهما على الآخر فيحوله إلى مثل طبيعته وتكوينه. وإنما يبقى كل منهما محافظاً على خصائصه ومميزاته لأن برزخاً مائياً

ذا طبيعة مائية مغايرة لطبيعة ماء البحرين يفصل بينهما ويمنع طغيان أحدهما على الآخر. ولما التقطت أجهزة التصوير الحديثة صورة لهذا الملتقى البحري أبرزت الصورة أن لون ماء الحاجز (البرزخ) مغاير للون ماء البحرين وأنه في سمك ليس بالكبير وإنه يتماوج مع تردد حركة مياه البحرين ولا يدع أحدهما يهجم على الآخر ويطغى عليه.

ثم يقف علماء البحار أيضاً مذهولين أمام قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

حتى بداية القرن الحالي لم يكن أحد من الناس يعرف أن في البحر أمواجاً داخلية زيادة على الأمواج الظاهرية، حتى جاء العلم الحديث وبدأت الدراسات والبحوث التي أسفرت عن اكتشاف أمواج داخلية في المحيطات العميقة وعن اكتشاف ظلمات حالكة تحت الأمواج الباطنية.

ثم ننتقل إلى علماء النبات مثلاً فنجدهم يعجبون من قول الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: 19]. لقد كان الناس يجهلون حقيقة الاختلاف في تكوين النباتات المختلفة، حتى تقدمت العلوم وجاءت الدراسات وبدأت التحاليل فاكتشف الإنسان أن كل النباتات تتكون من مواد أساسية واحدة هي (كربون، أكسجين، أيدروجين، نتروجين، كبريت أو فوسفور) مع المواد

الضئيلة الأخرى غير أن سبب اختلافها يرجع إلى اختلاف أوزان المواد في كل منها. وأن جذر كل نبات لا يمتص من مواد الأرض إلا المقادير الموزونة المحددة له، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم في قول الحق ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾.

ولو استمررت في تعداد الأمثلة لأطلت لكنني أكتفي بهذه النماذج لأؤكد أن كل فئة من الأمة الإسلامية لا بد أن تملك أدلتها العقلية لتدافع بها عن عقيدتها الإيمانية وإذا كان كبار العلماء يملكون براهين القمة فإن الأميين الذين لم ينالوا حظاً من العلم لهم أدلتهم الفطرية النابعة من ذكائهم وصفائهم، ويكفي أن نذكر المثال البدوي الرائع الذي يقول صاحبه: «إذا كانت البعرة تدل على البعير وآثار الأقدام تدل على المسير ألا يدل هذا الكون على اللطيف الخبير؟».

فإذا وصلنا إلى الأمي الذي ينقصه الذكاء نجد دليله على وجود الخالق ووحدانيته هو تصميمه واعتصامه بحيث يقول لك: «لا إله إلا الله» وكفى ولا أقبل في هذا جدالاً. ثم نجد الدليل العام البدهي الذي يشترك فيه كل الناس والمتمثل في أن الإله له آثاره وهذا الكون الذي نراه كله من خلق الله. لأنه لم يَدَّعِ خلق شيء منه سواه، فأين آثار بقية الآلهة إن كانوا موجودين؟ يقول جل شأنه: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [لقمان: 11].

ولبناء عقيدة التوحيد في العقول لا بد من ترسيخ براهين الحق التي ساقها لكافة الخلق على مر الدهور والعصور إلى يوم الدين. قرآناً يتلى على العالمين. لقد أمدنا الله تعالى بثلاثة براهين وردت في

ثلاث سور من القرآن الكريم هي سورة الأنبياء الآية 22 وسورة المؤمنون الآية 91 وسورة الإسراء الآيتان 42 و43..

أما البرهان الأول: فيقوم إلى ثلاثة أسس هي:

أ ـ استقرار هذا الكون.

ب ـ تناسق أحداثه.

ج ـ انتظام سيره.

أما الاستقرار: فيعني أن هذا الكون كما عرفه الإنسان منذ آلاف السنين بل منذ ملايين السنين نراه باقياً على حاله بأرضه وسمائه وشمسه وقمره ونجومه وأفلاكه وبحاره ومحيطاته وأنهاره وسائر مخلوقاته، لم يضطرب ولم تتصارع مكوناته، ولم تفسد بنيته، ولم تتغير كبريات عناصره، فالشمس مثلاً لم تصبح شمسين، ولم تغب عن البزوغ، ولم تتخلف عن الغروب يوماً على الإطلاق، والليل والنهار يتعاقبان والسحب والرياح والأمطار.. فهذا كله يدل على أن الكون مستقرّ وليس مضطرباً. وثابت وليس متغيراً. وأما تناسق الأحداث: فيعني أن ما نراه من ليل ونهار وشمس وقمر ورياح وسحب وأمطار وحر في الصيف وقرّ في الشتاء، وفصول تتعاقب طوال السنة وشهور في منتهى الضبط ومد وجزر في البحار وسقوط أوراق الأشجار في الخريف وعودتها في الربيع والأزهار والأثمار وما إلى ذلك من الأحداث، نراها تحدث طيلة أيام العام في تناسق وانسجام طبق منظومة من القوانين الثابتة والأحكام الدائمة لا تتخلف

ولا تتداخل ولا تختلف، فكلها تأتي على نظام واحد، وحسب تنسيق واحد، ولأداء وظائف متكاملة. وهذا التناسق يظهر جلياً عندما نتصور أن كل حدث مترتب على حدث آخر ويعد لحدث يأتي بعده. فأشعة الشمس تبخر من مياه البحار والمحيطات والأنهار، ويتجمع البخار فيصير سحباً تسوقها الرياح إلى حيث يشاء الله ثم تتحول السحب إلى أمطار، تنزل على الأرض ماء نقياً عذباً ينبت الزرع والكلأ. وهكذا نرى أن كل الأحداث متناسقة متعاقبة متكاملة.

وأما انتظام السير: فيعني أن كل شيء يأتي في موعده ولا يتخلف، فالليل والنهار والفصول الأربعة والشمس والقمر وما إلى ذلك. كل هذه الأحداث نراها منتظمة السير. فلا الليل يتخلف ولا النهار يتغيب، ولا الشمس تستعصي عن الطلوع، ولا القمر يقرر الاضراب عن العمل، فسير كل أحداث العالم في منتهى الانتظام والتناسق والاستقرار كما أسلفنا. يقول جل جلاله:

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ * وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: 38 ـ 40]. أليس ذلك دليلاً على أن ما في هذا الكون يشهد أنه تحت نفوذ إرادة واحدة وتحت تصرف حاكم واحد؟ يقول جل جلاله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22].

البرهان الثاني: يقوم على أساس الارتباط المحكم الدائم بين أجزاء الكون، الأمر الذي يجعله وحدة متماسكة متكاملة متناغمة

يرتبط بعضها ببعض ويكمل بعضها بعضاً بصفة دائمة متواصلة مستمرة لا تنقطع ولا تتوقف كما أسلفت. أليس ذلك كله شاهداً بأن هذا الكون تحت سيطرة مالك واحد. إذ لو كان مع الله آلهة أخرى لفصل كل إله ما خلق. ولشاهدنا عمليات الانفصال والتجزئة ظاهرة في هذا الكون، «وَلَكَمْ تكون الحياة مريرة وتعيسة لو أن للشمس إلهاً منع عنا ضوءها، أو للسحب إلهاً منع عنّا قطرها أو للشجر إلهاً منع عنا ثمرها». وبما أن شيئاً من هذا لم يحصل على الإطلاق فكان ذلك دليلاً على أن هذا الكون كله تحت تصرف مالك واحد هو الله جل جلاله. يقوله سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [المؤمنون: 91].

لو كان مع الله إله آخر أو آلهة أخرى لظهرت آثار تعدد الآلهة الناتجة عن علو بعضهم على بعض وعن تحكم كل منهم فيما خلق وعن رغبة كل إله في إظهار قوته وتفوقه وعظمته.

البرهان الثالث: يتمثل في الأمن السائد في أرجاء هذا الكون، الأمر الذي جعلنا لا نسمع ولا نرى حروباً كونية مدمرة مروعة تقع في أي بُعْدٍ من أبعاده، لم نسمع أن مجرة كونية شنت حرباً على مجرة أخرى وأن إحداها دمرت كذا كوكباً للأخرى مثلاً، ولم نسمع أن هذا الملكوت الواسع العريض الذي لو حاولت طائرة أن تطوف به، وهي تطير بسرعة الضوء، لبقيت مليارت السنين دون أن تتمكن من ذلك، لم نسمع أن هذا الملكوت كان ميداناً لصراع جبار بين الآلهة المتنازعة، ولم نسمع أن مجموعة من الآلهة الصغيرة تحالفت

وتعاونت على من له النفوذ والقوة الأعظم، ونحن جميعاً نعرف أن من البديهيات أن لا يجتمع سلطاناً على سلطنة واحدة، ولا أميران على إمارة واحدة، ولا رئيسان على رئاسة واحدة، فإن اجتمع ملكان أو أكثر على مملكة واحدة اشتعلت بينهم نار الحرب، ودمر بعضهم بعضاً، حتى ينفرد الأقوى بالحكم، أو يهلك الجميع وتهلك المملكة كلها، وكلنا يعلم ما جرى في بغداد عندما عهد هارون الرشيد بالخلافة من بعده إلى ولديه الاثنين الأمين والمأمون. فقد نشب بينهما صراع عاتٍ، ونشبت حروب مدمرة، وعاشت الأمة الإسلامية محنة مروعة، أثر وفاة هارون الرشيد ولم تخب نار الفتنة، ولم تهدأ سورة الحرب إلا بعد أن تمكن المأمون من قتل أخيه الأمين، والانفراد بالخلافة. وهذا المبدأ يبدو أنه بدهية اجتماعية أضحت من المسلمات اليقينية، الأمر الذي جعل الدنيا كلها تجمع على وحدانية الرئاسة، فالبلد الواحد يقوده رئيس واحد أو ملك واحد أو أمير واحد، كما أن السفينة الواحدة يقودها ربان واحد.. الخ يقول الله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۞ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 42 و43].

3 ـ **بناؤها في الألسنة:** من البدهي أن القلب والعقل واللسان بينهم جدلية تكامل، فإذا اهتز القلب وتفكّر العقل، نطق اللسان وإذا افتكر العقل وانفعل القلب انطلق اللسان. وإذا انطلق اللسان، تحرك العقل وهفا القلب. هذا هو الوضع الطبيعي لدى الأسوياء من الناس، ويمثل هذ الوضع القاعدة المطردة، ومع

وجود القاعدة فإن الاستثناء وارد، أعني قد تتخلف هذه الجدلية عند البعض عن طريق انخرام بنيتها بتجمد حلقة من حلقاتها يعطل الدورة ويشل حركة اكتمالها. وانطلاقاً من قاعدية الجدلية الآنفة نرى الإسلام يبدي بالغ الاهتمام ببناء قاعدة التوحيد في لسان المسلم، حتى تضحي شعاره الدائم وسمته البارزة، ويرقى الإسلام بجدلية التكامل الثلاثية، ويضيف إليها حلقة رابعة تجلعها تبلغ ذروة الاكتمال، ذلكم أن التحرك الثلاثي المبيّن آنفاً يفضي حتماً إلى ناتج مادي له صورة وكيان باقيان دائمان ينفعان الناس، ويساهمان في نشر الآخاء وتعميم الرخاء، إذ أن الأمر لا يتوقف عند حدود القلب والعقل واللسان وإنما يتعدّى إلى بقية جوارح الأبدان التي تترجم المشاعر والأفكار والشعارات إلى أعمال تبني أمة الإسلام.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: 70 و71] وهكذا كان القول السديد جسراً أفضى إلى إصلاح الأعمال، لأن القول السديد نبع من عقل رشيد، وقلب يخاف يوم الوعيد، فجاء عون الله وتوفيقه فأصلح الأعمال وغفر الذنوب، وسيأتي الحديث عن بناء قاعدة التوحيد في جوارح الأبدان إن شاء الله.

أما الآن فأردت أن أبرز مدى الارتباط القائم بين مكونات هذه الجدلية الإيمانية الإسلامية من جهة، ومدى عناية الإسلام بتكاملها من جهة أخرى.

وبناء قاعدة التوحيد على اللسان إنما يتمُّ عن طريق المنهجية الإلتزامية الإلزامية التي تحوّل المُلتزم والملزم به إلى عفوية تلقائية تنساب انسياب الإفرازات السليقية، أعني أن الشيء الذي نلتزم به ونلزم به منظورينا ومن ولاّنا الله أمر تنشئتهم ورعايتهم يضحي سليقة فينا، حتى كأننا جبلنا عليه ولا نعرف سواه، وهنا تحضرني طرفة ذات دلالة كبرى في هذا المقام: فقد أخذ أحد العرب ابنه الصبي إلى الكتّاب ليحفظ ما تيسر من كتاب الله على يد المؤدب، وكان الصبي ذكياً نبيهاً سريع الحفظ، فصيح اللسان، فحفظ سورة الفاتحة ثم الناس ثم الفلق ثم الإخلاص وانتهى إلى سورة المسد، فشرع المؤدب يلقنه الآية الأولى منها وهي: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ لكن المؤدب أراد تجزئة الآية إلى نصفين تيسيراً على الغلام فلقنه «تبّت يدا» فقال الغلام «تبّت يدان» فأعاد المؤدب «تبّت يدا» فأعاد الغلام «تبّت يدان» فغضب المؤدب وضربه ضرباً موجعاً، ورغم ذلك بقي الصبي مصراً على القول «تبت يدان» حتى جاء أبوه ليرجع به إلى البيت كما كان يفعل كل يوم، فاشتكى إليه المؤدب من تحجّر لسان ابنه وقوة عناده وقال له: «عجزت عن تلقينه نصف آية من سورة المسد. أنا أقول له تبّت يدا، وهو يقول تبت يدان». وكان الأب رجلاً مثقفاً، يعرف قواعد الكلام الصحيح، فدعا بابنه فلما حضر لديه ابتسم إليه وقال له تعال نقرأ معاً ما تعملت اليوم عن سيدك: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ فانطلق لسان الصبي بكل يسر يردد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ فتعجب المؤدب، فقال له والد

الصبي: «يا سيدي ابني لا يعرف مثنّى تحذف نون إعرابه بدون موجب، فلما جاء المضاف إليه حذفت نونه حذفاً شرعياً، فخجل المؤدب وأدرك أنه هو المخطىء.

وما سقت هذه الطرفة إلا للتأكيد على أن الالتزام والإلزام يؤديان إلى سلامة الآداء وجودته بصفة عفوية، لا يمكن التعبير عنها إلا بأنها صارت سليقة فطرية.

فالذي ينشأ في محيط ملتزم بنظافة الكلمة، ويلقّن الكلمة الطيبة دون سواها، ينشأ ملتزماً بالكلمة الطيبة التزاماً سليقياً لا تكلّف فيه ولا إجهاد. لذلك جعل رسول الله ﷺ شعاره ذكر الله. فقال وهو متوجه إلى ربه بالدعاء: **«ذكرك شعاري وثناؤك دثاري»**.

فإذا التزمنا بكلمة التوحيد شعاراً، ومتقضياتها دثاراً، وألزمنا أبناءنا بذلك، أصبحت لغة التوحيد لغتنا ومضامينها سلوكنا. فإذا كنا في حياتنا اليومية نتعامل مع الأحداث بِنَفَسٍ إيماني يحملنا على أن ننسب كل أمر من أمور دنيانا وآخرتنا إلى الله دون سواه مثلاً، فالشفاء من عند الله والرزق من الله، والنصر من عند الله، والعلم من فضل الله والإنس بالله، والابتلاءات من الله، والأرض وما فيها من خلق الله، والسماء وما فيها من صنع الله إلى غير ذلك مما يرسخ في لغة الإنسان مضمون كلمة التوحيد ويجعله معبراً تعبيراً عملياً عما في القلب من معاني الوحدانية، وبذلك تكون كلمة التوحيد تغطي ساحة حركتنا بأكملها فلا تسمع من المسلم الموحد إلا «لا إله إلا الله» بسم الله، «ما شاء الله» «لا حول ولا قوة إلا بالله» حسبي الله «إنا لله وإنا

إليه راجعون» «توكلت على الله» «اتق الله» «وما توفيقي إلا بالله» «أن وليي الله» «سبحان الله». . . .

وبهذا يكون المؤمن من الذين قال عنهم الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: 191].

ويكون من الذين استجابوا لأمر ربهم الذي يقول: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 205].

ولقد لقّننا الله عز وجل درساً عن طريق نبينا محمد ﷺ علينا أن لا ننساه أبداً، وكيف يمكن أن ننساه وهو قرآن يتلى إلى يوم القيامة؟ فقد جاء وفد من اليهود إلى رسول الله ﷺ وسألوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب؟ وسألوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسألوه عن الروح؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: **«أخبركم غداً عما سألتم عنه» ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: «وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بالآية الخامسة والثمانين من سورة الإسراء وفيها الإجابة عن السؤال الثالث وبسورة**

الكهف. وفيها الإجابة عن السؤالين الأولين، وفيها أرشاد وتوجيه من الله عز وجل لرسول الله ﷺ وللمسلمين أجمعين إلى يوم الدين. يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 23 و24].

وكان الدرس عميقاً إلى أبعد حدود العمق، فرغم أن الموقف كان خطيراً بالنسبة إلى رسول الله ﷺ، وبالنسبة إلى الدعوة عامة، لأن اليهود أعداء الإسلام أرادوا تعجيزه للتشهير به وإظهار بطلان رسالته حتى يرتد من آمن به، ويحجم من سيؤمن به. رغم ذلك كله فإن الله عز وجل منح الأولوية المطلقة لترسيخ ثوابت الإيمان في عموم حركة نبي الإسلام. ومن سيخلفه في الدعوة إلى الله من أبناء الأنام. لأن الدعوة متواصلة إلى يوم القيامة ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 104] ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108] فكل المسلمين دعاة إلى يوم القيامة. لذلك لا بد من ترسيخ ثوابت التوحيد في قلوبهم وعقولهم وألسنتهم وسلوكهم وأي خلل يطرأ على هذه البنية تكون عواقبه وخيمة، لذلك نرى الله عز وجل عالج هذه القضية بأسلوب أعطانا درساً لا ينسى أبداً، إذ حبس الوحي عن رسول الله خمسة عشر يوماً، ولم يسعفه بالإجابة عن أسئلة اليهود الماكرين، ليعلّمنا جميعاً كيف نلتزم التزاماً مطلقاً بآداب التعامل مع الله، حتى نردّ كل شيء إلى مشيئة الله عز وجل، وبذلك تكون لغة

التوحيد شعارنا ومضامينها سلوكنا ودثارنا، بها نتحرّك ولها نحيا وعليها نموت.

ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«قال سليمان ابن داود عليهما السلام لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة تلد كل امرأة منهنّ غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقال له الملك: «قل إن شاء الله، فلم يقل، فطاف بهنّ فلم يلد منهنّ إلا امرأة واحدة نصف إنسان. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته» وفي رواية «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».**

وأريد أن أختم بملاحظة تتمثل في أن هذه الغاية لا تدرك بالكامل إلا إذا أجمعت كل فئات الأمة على تطبيق مبدأ الالتزام والإلزام في المدارس والمعاهد والكليات ووسائل الإعلام... لكن إذا تخلت بعض الأطراف عن أداء واجبها لا يكون ذلك مبرراً لتخلي أي فرد منا. إذ في هذه الحالة يتحتم العمل بمبدأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: 105].

4 ـ **بناؤها في جوارح أبداننا:** وهنا تبلغ بنية التوحيد قمّتها، ذلكم أن ما كان مشاعر تهفو بها القلوب وقيماً تتمسك بها العقول وشعارات ترددها الألسنة، يتحول الآن إلى سلوك تتحرك به الأبدان وتحيله إلى صيغ مادية ترى بالعين وتلمس باليد عن طريق مواقف باقية لا تزول ثابتة لا تتغير مما يجعل التوحيد

أفعالاً قبل أن يكون أقوالاً وسلوكاً قبل أن يكون شعارات وفضائل تنشر الآخاء والصفاء والوفاء وتؤلف بين القلوب وتشيع الأمن والاطمئنان وتجمع الناس على موائد التعاون على البر والتقوى.

الموحدون ناس يلتزمون الاستقامة في السلوك والصدق في القول ويتوخون الصلاح والإخلاص في العمل، ويتوجهون بكل ما يعملون إلى الله دون سواه ولا يشركون مع الله أحداً. وليس معنى هذا أن الموحدين معصومون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإنما معناه: «إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون». فهم ناس أسوياء لم يتجردوا من بشرتهم، معرّضون للأخطاء والنسيان والجهالة لكنهم في صراع دائم مع أنفسهم وأهوائهم، ومع شياطين الإنس والجن، لا يهادنون ولا يستسلمون وعلى ربهم يتوكلون، وبه يعتصمون إذا أحسنوا يستبشرون، وإذا أساؤوا يحزنون ويتوبون ويستغفرون، يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون رمضان ويحجون البيت الحرام إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ويؤدون الأمانات ويراعون العهود ويغضون أبصارهم عن محارم الله ويحفظون فروجهم عن كل ما حرم الله. يعرضون عن اللغو ويستنكفون من الفحش، ويستحيون من الله حق الحياء، يتواضعون ولا يستكبرون، ويرحمون ولا يقسون، وإذا ظلموا هم يغفرون. لكنهم إذا انتهكت حرمات الله يغضبون ولا

يتسامحون. هذه بعض سمات الموحدين وبدون هذه السمات يصير التوحيد زيفاً كاذباً وسراباً خادعاً، وبرقاً خلباً، لأن التوحيد بلا ثمار، وبدون آثار تحييد لا توحيد. أعني أن صاحبه يحيد عن صراط الله المستقيم ويكون من الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، لأنه لو كان في قلوبهم لعبرت عن وجوده جوارح أبدانهم ولترجمته سلوكاً مستقيماً وعملاً صالحاً قويماً.

وهنا أحب أن أنبه إلى شعار إبليسي شاع وراج بين أبناء المسلمين مضمونه أن الإيمان في القلب، وهو علاقة خاصة بين العبد والرب، وإذا كان هذا الشعار كلمة حق في ظاهره، فإنه أريد به الباطل في مضمونه. ذلك أن شراح هذا الشعار يوغلون في الاستهتار، ويقولون ليس الإسلام صلاة وصياماً وزكاة وحجاً وبراً وإحساناً، وإنما الإسلام عقيدة في القلب وكفى والباقي لا معنى ولا أثر له في حياة الناس، ويتبدل ويتغير بتغير الأحوال والمجعتمات فليس من الإيمان أن تلتزم المرأة في عصر الذرة بلباس القرآن وليس من الإيمان أن يضيع المسلم وقته في أداء الصلوات وليس من الإيمان أن ينهك المسلم جسمه بصيام رمضان وبالتالي فإن مقتضيات الإيمان كلها تبقى ملكاً للإنسان، يتصرف فيها حسب ما تهواه نفسه، وحسب ما يراه صالحاً لحاضره ومستقبله ومن ثم تبدأ التجاوزات والانحرافات والاختراقات تتزاحم وتتوالى تحت شعار الفتوحات والريادات والتّحديثات.

ولا أدري كيف يفهم هؤلاء الناس تأكيدات القرآن والسنة

المتكررة على وجوب الاتباع واجتناب الابتداع وعلى أن الإسلام ثوابت أبدية وليس قيماً ومطلوبات تجريبية.

ويكفي أن نستعرض نماذج من آيات القرآن الكريم الواردة في هذا المعنى: يقول سبحانه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: 3].

ويقول سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 18] ويقول سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 2] ويقول ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ**» (متفق عليه).

ومن خلال الآيات والحديث يتبين أن الصفة الثابتية هي العمود الفقري في المقتضيات الإيمانية التي تمثلها المطلوبات الإسلامية. إذن فكيف نبني قاعدة التوحيد في جوارح أبداننا؟

يجيب رسول الله ﷺ:

«**روي عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة» قيل وما إخلاصها؟ قال: «أن تحجزه عما حرم الله عليه»** (رواه الطبراني).

وهكذا جعل الرسول ﷺ الإيمان سلوكاً يعاش، وعملاً صالحاً يمارس في نطاق ما أمر الله به ونهى عنه.

وعن رفاعة الجهني رضي الله عنه قال: «أقبلنا مع

رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالكديد فحمد الله وقال خيراً، وقال «**أشهد عند الله لا يموت عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله صدقاً من قلبه ثم يسدّد إلا سلك في الجنة**». (رواه أحمد).

ثم إن أبلغ ما نسوقه كشاهد لسلوكية الإيمان قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30].

ولنركز على قول الله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ فإنه تعبير صريح عن مدى أهمية التكامل بين العقيدة ومقتضياتها، ذلك أن الإيمان الخالص بالله عز وجل يقتضي الالتزام بطاعته في كل ما أمر به أو نهى عنه إذ لا وجود لإيمان بدون مقتضيات كما أنه لا وجود لشمس بدون ضياء ولا وجود لمطر بدون ماء، فإذا قلت طلعت الشمس قلت عم الضياء وانتشر وإذا قلت نزل المطر قلت نزلت المياه وسقت الأرض والشجر. فإذا لم ينتشر الضياء ولم ينزل الماء كان ذلك دليلاً على عدم طلوع الشمس وعلى عدم نزول المطر.

وكذلك إذا قلت لا إله إلا الله ولم تظهر الاستقامة الإسلامية والطاعة الإيمانية، كان ذلك دليلاً على عدم وجود التوحيد الكامل في قلب من نطق لسانه بكلمة التوحيد وخالفت جوارحه بأفعالها مقتضياته، وبذلك يكون بناء قاعدة التوحيد على جوارح الأبدان يعني الالتزام بمقتضيات الإيمان.

ولو تتبعنا كتاب الله عز وجل لألفينا التزامل والتزامن دائمين متواصلين بين الإيمان والعمل الصالح:

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 62].

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: 69].

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: 82].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: 107]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 7].

والآيات التي يتزامل ويتزامن فيها الأيمان والعمل الصالح تغطي ساحة كامل الروضة القرآنية، حتى لا تكاد سورة من القرآن تخلو من ذلك، للتأكيد على حتمية الترابط بين الإيمان ومقتضياته العملية، وآثاره السلوكية. لأن الذي يحمل معه مصباحاً ولا يستنير به، ولا يهتدي بنوره في ظلام الليل الدامس، هو في الحقيقة لا مصباح له. إذ أن المصباح نور وليس هيكلاً مادياً وحسب. فإذا غاب النور غاب المصباح ولو كان الهيكل المادي للمصباح حاضراً.

والمهم في هذه القضية الآن بعد أن انتشر الكثير من الضباب المعتم، والقتام الحاجب للرؤية الواضحة، هو أن نعمل بحزم

وتصميم وذكاء وعمق على تقشيع الضباب وإزالة القتام من أجوائنا الإسلامية، حتى تتنحّى الغشاوة التي رانت على قلوب وعقول أبناء أمتنا فمنعتهم من رؤية الحق حقاً وحالت بينهم وبين اتباعه، لكن علينا أن نتوخى أحدث أساليب الطرح وأذكى منهجيات العرض وأعمق حجج الإقناع لأن تيارات معادية للإسلام تعمل بالليل والنهار من أجل اجتثاث أبنائنا من تربة دينهم، وإلقائهم في متاهات اللا دين مع إيهامهم بأنهم ما زالوا على دينهم عاكفين وربه مستمسكين ذلك أن أعداء الإسلام أغرقونا في فيض من الأهواء وصوّروها لنا قيماً علياً، ومثلاً سامية وزينوها لنا حتى اعتقدنا صدق مقالتهم، وأخلاص نصحهم، فاندفعنا نلهث وراءهم علنا ندرك المنى، ونبلغ قمة الجوزاء، ونحن نمتطي صهوة الأهواء، ناسين تحذير رب العالمين.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116].

ومتناسين تنبيه ربنا الصريح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 100].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 149] والطاعة هنا ليست بمعناها اللغوي المتمثل في الرضوخ والانقياد والاستسلام وتنفيذ الأوامر والنواهي فقط، وإنما بمعناها الأشمل المتمثل في الإعجاب والانبهار والاتباع والإصغاء إلى الإملاءات غير المباشرة.

لهذا لا بد من العمل من أجل تحرير رقابنا وفكها من الأسر، وعتقها من عبودية التبعية ولن يكون ذلك عن طريق النهضة الاقتصادية وحسب وإنما يكون عن طريق النهضة الفكرية والثقافة النابعة من قيمنا الإسلامية. وبناء الشخصية الطريفة المتميزة بمقوماتها الإيمانية الحضارية الريادية. هذا مع الانفتاح الرشيد الواعي على الحضارات الإنسانية المعاصرة لنأخذ منها ما يثرينا ويغنينا، وندع ما يلهينا ويفنينا، وبذلك نكون، وبدون ذلك لا نطمع بكينونة تحت الشمس ونهلك ـ لا قدر الله ـ مع التّافهين. فلنعمل والله معنا.

أولـيــاء اللّــه

قضية الولاية والأولياء جديرة بالوقوف عندها دون إطالة، لأنها كانت وما زالت من الأسباب التي أضلت الكثيرين، وألبست عليهم الحق بالباطل وأرتهم السراب ماء، وقادتهم إلى ضرب من الشرك خطير. وشوهت مفهوم الولاية وصورة الولي تشويهاً فظيعاً، مما جعل الولاية مشاركة لله عز وجل في الحكم والتسيير والنفوذ، وجعل الولي في الوقت نفسه ذلك المشعوذ الوسخ المنصرف عن الدنيا وما فيها، المتمحض إلى الشرود والذهول والهذيان بكلام أكثره غير مفهوم، المتنبىء بالغيب، العالم بما كان وبما يكون، وبما هو كائن، الذي يفر من العمران ويستقر أو يطوف بين الأودية والكهوف والجبال والغابات، ويضرب في الصحاري غير عابىء بالعطش والجوع، وغير مكترث بالهوام والأفاعي نشيده إذا أبصر إنساناً أو سمع صوته.

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذا عوى. . . وصوت إنسان

فكدت أطير. . هذا وأمثاله يبحث عنهم الملهوفون والمرضى والمحتاجون ليرفعوا إليهم حاجاتهم لأنهم يعتقدون أنهم على قضائها قادرون، فإذا ما أتوا تحول القاصدون من ذوي الحاجات إلى أضرحتهم فبنوا عليها القباب وتوافدوا عليها مقدمين بين أيديهم النذور والهدايا والذبائح راجين من صاحب الضريح الشفاء والعطاء والنصر على الأعداء وعيش السعداء.

بصراحة أقول: إن هذه الصورة القاتمة تشويه فظيع لناس زينهم الله بالعلم والحلم والحكمة والتقوى، فكانوا منارات مشعة في مجتمعاتهم علموا الناس، ونشروا الفضائل وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ودعوا إلى الخير وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. وزهدوا في زخارف الدنيا زهد المالكين وعاشوا أسياداً سلاطين، يعمرون بيوت الله ولا يخشون إلا الله، تجدهم وقت البذل والتضحية متقدمين، ووقت الأخذ والاستفادة متأخرين لأن شعارهم هو شعار الأنبياء والمرسلين وهو ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 109].

إذن فمن هو ولي الله؟

ومن أجدر من رسول الله ﷺ بتحديد ملامح وأوصاف ولي الله. فقد روى البزار عن ابن عباس قال: «قال رجل يا رسول الله من أولياء الله؟ فقال ﷺ: **«أولياء الله الذين إذا رُأوا ذكر الله»**. (رواه البزّار عن ابن عباس).

ولـي الله إذا رأيتـه لا يـذكـرك بـمـال ولا بـولـد ولا بـزوجـة ولا بوظيفة، ولا بتجارة ولا بفلاحة ولا بلهو ممتع ولا بزينة مبهجة، ولا بأصحاب ولا بأقارب ولا بجيران، وإنما يذكرك بشيء واحد هو الله. فإذا رأيته ذكرت الله وأي صورة أكمل رواء وأشرق ضياء وأتم بهاء من هذه الصورة التي رسمها سيدنا رسول الله ﷺ لولي الله؟ فإذا قارنتها بالصورة التي رسمتها المجتمعات التائهة للولي وجدت البون شاسعاً والفرق كبيراً.

ثـم إنه ﷺ يقدم لنا جانباً من صورة الأولياء بصفة تفصيلية فيقول: **«إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء» قيل من هم يا رسول الله لعلنا نحبّهم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ** ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62](أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة ورواه أبو داود).

وحين عرّف أجدادنا رضي الله عنهم الأولياء قالوا: «جمع ولي وهو العارف بالله تعالى وبصفاته حسب الإمكان، المواظب على الطاعة، المجتنب للمعاصي بمعنى أنه لا يرتكب معصية بدون توبة، وليس المراد أنه لا تقع منه معصية بالكلية إذ ليس معصوماً، وهو معرض عن الانهماك في اللذات والشهوات المباحة وأما أصل التناول فلا مانع منه لا سيما إذا كان بقصد التقيّ على العبادة.

وسمي ولياً لأن الله تولى أمره فلم يكله إلى نفسه ولا إلى غيره

لحظة ولأنه يتولى عبادة الله على الدوام من غير أن يتخللها عصيان» (بغية المريد لجوهرة التوحيد ص80).

كرامات الأولياء: ومما أتعب العوام من المسلمين ما شاع عن الأولياء من كرامات. وهي أشياء خارقة للعادة تظهر على أيديهم، الأمر الذي يذهل غير العارفين ويستحوذ على إعجابهم، ويميل بهم إلى شيء من التقديس باعتبارهم غير عاديين بسبب هذه الكرامات التي أكدت تميزهم عن سائر الناس، وما دروا أن لله حكمة في تلك الكرامات أراها متمثلة في تزكية عمل الولي نفسه وتثبيته حتى يصبر ويصابر ويرابط وفي حفز هِمَم بقية المسلمين ليلتحقوا أو يقتربوا بالجد والاجتهاد من مستوى الأَولياء في الصلاح والاستقامة.

وكرامات الأولياء شيء ثابت لا شك فيه، ويكفي لتأكيد ثبوته أن نستعرض النموذجين القرآنيين الآتيين: أما الأول فإنه نموذج السيدة مريم عليها السلام التي منحها الله تعالى الولاية وأظهر على يديها الكرامات فقد جعلها تنبت في اليوم كما ينبت المولود في عديد الأيام، وكفلها زكريا وكان لا يدخل عليها إلا هو، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، ولما سألها: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37].

وأما النموذج الثاني فيمثله أصحاب الكهف، وهم سبعة من أشراف الروم خافوا بعد عيسى على إيمانهم من ملكهم فخرجوا ودخلوا غاراً فلبثوا فيه بلا طعام ولا شراب ثلاثمائة وتسع سنين نياماً

بلا إفاقة. ونذكر من بين كرامات الأولياء ما روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى العدو من مسافة شهر، فقال: يا سارية الجبل، فسمع سارية صوته، فانحاز بالناس إلى الجبل. وقاتلوا العدو فنصرهم الله تعالى.

كما نذكر أن عبد الله بن الشقيق رضي الله عنه كان إذا مرت سحابة يقول لها: «أقسمت عليك بالله ألا أمطرت فتمطر في الحال».

والشيء الذي نعتقده ونتمسك به هو أن الأولياء ناس أطاعوا الله بإخلاص وآمنوا به بصدق فأحبهم وقربهم وأظهر على أيديهم كرامات لتبشيرهم بالرضاء والقرب ولشحذ عزائمهم حتى يثبتوا أقدامهم على طريق الطاعة والجهاد في سبيل الله، وحتى يكونوا قدوة لغيرهم من المؤمنين وحتى يغبطهم الموفقون فينهجوا نهجهم ويسلكوا سبيلهم طمعاً في اللحاق بهم.

كما نؤمن بأن هؤلاء الأولياء الذين بشرهم الله في الدنيا بالرضاء ستبشرهم الملائكة في الآخرة بالجنة. يقول عنهم الله عز وجل: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: 62 ـ 64] ولاحظوا معي وصف الله عز وجل للأولياء كيف كان في غاية الوضوح واليسر والموضوعية الأمر الذي يمكن كل مؤمن من الارتقاء إلى مرتبة الولاية حيث أنها لا تتطلب أكثر من الإيمان والتقوى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 63] ومما ينبغي أن نؤمن به في هذه القضية

هو تأييد الله لأوليائه تأييداً ينطلق من ولاية الله تعالى لهم، حيث يكون الله ولياً لهم. يقول عز وجل: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: 196].

ومن والاه الله نصره على أعدائه واستجاب دعاءه وقربه منه حتى كان سمعه وبصره ويده. يقول الله عز وجل في الحديث القدسي الذي يرويه الإمام البخاري:

«من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته» (رواه البخاري).

ومن كل ما أسلفت يتضح لنا أن أولياء الله لا نجدهم في القبور تحت القباب رجالاً لا نعرف عنهم إلا ما قيل من أنهم أولياء صالحون، إن هؤلاء الناس أصحاب الأضرحة حالهم لا يعلمه إلا الله، ولكننا نجد أولياء الله بيننا أحياء يعيشون معنا، يعملون في حقولنا ومصانعنا ومتاجرنا ومعاهدنا ومدارسنا، عرفوا بتقوى الله، واشتهروا بالاستقامة والطاعة والعفة وحسن المعاملة ودماثة الأخلاق ولم يخل سلوكهم من أخطاء لأنهم ليسوا أنبياء لكنهم سرعان ما يتوبون وإلى ربهم يرجعون فهؤلاء الأولياء علينا أن نعرفهم ونتحرى إكرامهم ما استطعنا ونتفادى إلحاق أي أذى بهم خوفاً من الله عز

وجل الذي توعد من عادى له ولياً بأن يشن عليه حرباً ومن حاربه الله دمره وأخزاه.

وأخيراً علينا أن نسعى جميعاً إلى إدراك مرتبة الولاية ـ ولم لا ـ والأمر لا يتطلب أكثر من إيمان صادق وعمل صالح. عسى أن يحيينا الله تعالى حياة طيبة ويختم لنا بخير عمل ويجعل ثوابه الجنة. يقول ﷺ في حديث البراء رضي الله عنه: «**إن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب. فقالوا: أخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء**» وهذه البشرى العاجلة فإذا انتهوا إلى ربهم جاءتهم بشرى الآخرة. يقول جل جلاله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 103].

القضـاء والقـدر

ترددت كثيراً في طرح هذه القضية الشائكة. لا خوفاً من مزالقها وحسب وإنما لأنني تناولتها بشيء من الإسهاب في كتابي «من أجل بناء الشخصية الإسلامية» لكنني عزمت أخيراً على طرحها لأن موضوع الكتاب يستقطبها باقتضاء، ويشملها بإلزام. إذ ليس من المعقول أن لا يشتمل كتاب في علم التوحيد على مبحث القضاء والقدر. لأن المقومات الإيمانية تشتمل على هذه القضية. فكلنا يعلم أن سيدنا رسول الله ﷺ حين سأله جبرائيل عليه السلام عن الإيمان ليعلم المسلمين دينهم قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره» فبنية الإيمان تنتقض إذا انتقض مقوم من المقومات الستة، وتهتز إذا اهتز واحد منها. ولئن بينت في مبحث شمولية توحيد الخالق أن الإيمان بهذه المقومات يتضمنه الإيمان بالله الواحد، إلا أن قضية القضاء والقدر لها من الإغراء والاستهواء ما يجعل العقل كثير الانشغال بها لأنها ملتحمة بحركة

حياته اليومية فالإنسان يومياً يعمل ويتحرك فيصيب ويخطىء ويحسن ويسيء ويبر ويفجر ويطيع ويعصي ويتعرض للابتلاءات وقد تنزل عليه النكبات دون سبب مباشر، لذلك يعجّ صدره بالتساؤلات: هل يقع ما يصدر عني بقضاء الله وقدره؟ أم هو خارج حدود القضاء والقدر؟ وهل ما يصيبني بقضاء الله أم بالصدفة أم بناموس آخر لا نعرفه؟ وإذا كان ما يصدر عنا بقضاء الله فلم نحاسب عليه؟ ولم نسأل عنه؟ وإذا كان ما يصيبنا دون سبب مباشر بقدر الله فلماذا قدره الله؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الحائرة التي لا تهدأ ولا تنقطع وما ذلك إلا بسبب ضآلة فقهنا لهذه القضية الناجم عن أخطاء أو تعقيدات وقع فيها أسلافنا رحمهم الله أثناء طرحهم لهذا الموضوع الدقيق.

وإني لا أرى لهذه التساؤلات الحائرة سبباً إلا انصراف أهل الذكر من علماء الإسلام عن العناية بهذا الأمر حتى يحسموه، ويطهروا من مضاعفاته عقول وقلوب أبناء المسلمين، وحتى يرفعوا عن بصائرهم الغشاوة التي رانت عليها وحجبت عنهم الحقيقة الناصعة.

إن المسلم لا يطمئن إلا إذا اطمأنت عقيدته، ولا يخلص عمله لله إلا إذا خلص له إيمانه، ولا يستقيم سلوكه إلا إذا استقامت مضامين دينه في ذهنه، لذلك لا بد من تحريك همم القادرين حتى ينهضوا بأعباء هذا العمل الجسيم، وهو عمل لا ينتهي ولا يتوقف إلى يوم الدين. لأن أعداءنا جادون في التشويش على عقيدتنا، وفي

إثارة الغبار أمام رؤية حقائق ديننا، وفي زرع الحيرة في قلوب وعقول أبنائنا، وهم بتدبير وأحكام يجدّدون وينوّعون على مرّ الأعوام وسائلهم وطرائقهم، ولا يتوقفون عن تحديث مناهجهم وطروحاتهم، لذلك وجب علينا أن لا نغفل عن ملاحقتهم وسدّ كل المنافذ في وجوههم، وتفويت كل الفرص عليهم حتى تبور بضاعتهم في أسواق شبابنا، ويضيع جهدهم وتطيش سهام مكرهم. فقضية القضاء والقدر لم تأخذ هذا البعد من الخطورة إلا أننا لم نقدمها لأبنائنا بوضوح يجعلها بدهية من البدهيات التي لا تناقش.

فإذا عرفنا أن القضاء هو الحكم الذي أصدره الله، وأن القدر هو الموضوع الذي صدر في شأنه حكم الله. وضعنا أقدامنا على الطريق الموصلة إلى الحقيقة بإذن الله، ولنبدأ بموضوع الحكم. لقد خلق الله عز وجل هذا الكون العظيم بأرضه وسمائه ومجراته وشموسه وأقماره، وبحاره وأنهاره وأشجاره وأطياره وأنسه وجنه وملائكته وسائر مكوناته التي لا تدخل تحت حصر، ولا يحيط بها عدّ، حتى أن مدير المرصد الفلكي الأمريكي قال: «إن عدد الكواكب التي تشاهد في الفضاء يكافىء عدد حبات الرمال الموجودة على شواطىء البحار، وإن بعض هذه الكواكب قد بلغ من الضخامة حداً جعله يتسع لملايين الكواكب في حجم كوكبنا الأرضي». وأن الناظر إلى مخلوقات الأرض فقط يذهل لكثرتها وتنوعها وتعدد وظائفها. كل هذه المخلوقات السماوية والأرضية في حاجة إلى منهج يضبط حركتها، ويحكم سيرها، ويحدد وظائفها، ويبين حدودها ويقنّن

علاقاتها بغيرها من المخلوقات. وما إلى ذلك من مقتضيات الحياة والتعايش مع أحياء الحياة، والمنهج يحتاج إلى نواميس تحكم مكوناته حتى يتم تنفيذه بدقة وإحكام وانضباط والتزام. وبهذا ينتظم سير الموجودات ويحقق التكامل ويستمر التوازن وتتحقق الغايات دون أن يحصل اضطراب أو فساد يعرّض الجميع إلى أخطار الدمار والفناء وسوء الحال والمآل.

من أجل ذلك وضع الله عز وجل لكل مخلوقاته نواميس ومناهج مفصلة مدققة تضبط الحركة، وتفصل الأهداف، وتحدد العلاقات. يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49] ويقول جل جلاله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2] ويقول سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: 1 ـ 3] وفي رواية للبخاري يقول ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء**» رواه البخاري والذكر هو اللوح المحفوظ).

وروى أبو داود والترمذي وأحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**أول ما خلق الله القلم. فقال اكتب. فقال: رب ماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**».

ولنتوقف قليلاً عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: 2 و3] ولنركز على قدّر فهدى فما معنى قدر؟ معناه وضع المنهج الوجودي الحياتي وقدره تقديراً وفصله تفصيلاً. فكيف

سينفذ هذا المخلوق قدر الله أي منهجه وبرنامج عمله؟ هل سيبقى دهراً يتعلم حتى يعمل وينفذ؟

إن ذلك يحتاج إلى وقت وجهد وماذا يفعل هذا المخلوق أثناء فترة التعلم والتدرب؟ ثم إن عملية التعلم قد لا تحقق كل أهدافها فلا يقدر المتعلم على تنفيذ المنهج بدقة وبدون أخطاء؟

ويأتي الجواب عن هذه الأسئلة من عند الله عز وجل مختصراً في حرف وكلمة أما الحرف فهو الفاء التي تدل على الترتيب والتعقيب الأمر الذي يجعل المخلوق ينفّذ قدر الله ومنهجه حالماً يخلق، دون انتظار ولا تعلّم ولا تدرّب وأما الكلمة فهي: «هَدَىٰ» والهداية هي الإلهام والتوجيه بحيث يصدر الفعل الصحيح والأداء الجيد عن صاحبه دون قصد أو عناء ودون حاجة إلى تعلم أو تدريب، وإذا أردنا التمثيل لهذا الأمر حتى يسلم به العقل فلننظر إلى الأجهزة التي تنتجها مصانعنا، فسنجدها تؤدّي وظائفها بكفاءة ودقة حالما يتم صنعها دون حاجة إلى تدريب أو تعليم. وإذا كان هذا يحصل فيما نصنع نحن فكيف لا يحصل فيما يصنعه الله وإن كان ما نصنعه نحن من صنع الله أيضاً.

وشاء الله أن يخص الإنسان من بين سائر مخلوقاته بتنفيذ جانب من منهجه تنفيذاً إرادياً يحتاج إلى تأهيل وتدريب وتعليم وحمّله مسؤولية عمله في هذا الجانب، عكس الجانب اللاإرادي الذي يبدأ عمله منذ تمام خلق الإنسان، والذي لا يحتاج إلى تعليم ولا إلى

تدريب، والذي لا مسؤولية فيه يتحملها الإنسان، فحركة الرئتين ونبضات القلب وعمل الكليتين وعمل المعدة والأمعاء والدورة الدموية. كل هذه الأجهزة تعمل دون إرادة صاحبها وتعمل منذ اللحظة الأولى التي تم فيها خلقها. ولا مسؤولية لصاحبها عن عملها. لكن ماذا يأكل الإنسان؟ وماذا يشرب وكيف يتعامل مع الناس وسائر المخلوقات؟ وماذا عليه أن يتعلم؟ وبأي شيء يعبد ربه؟ وأين يجلس؟ وما يتكلم؟ ومن أي مصدر يحصل على رزقه؟ وفيم ينفق ماله؟ وكيف يربط علاقته بالمرأة؟ وماذا عليه إذا أنجب الأطفال؟ وكيف يتصرف في سمعه وبصره ولسانه؟ إلى غير ذلك من الأفعال الإرادية. كل هذه الأفعال وغيرها تصدر عن الإنسان بإرادته. هكذا شاء الله وهذا ضمن المنهج الذي أعده الله لضبط حركة الإنسان في الحياة، لذلك لم يحمّل الله عز وجل عبده مسؤولية هذه الأعمال إلا بعد فترة يعلم أنها كافية لتأهيل الإنسان إلى تحمل مسؤولية أفعاله الاختيارية، وهي فترة تمتد من سنة الولادة إلى سنة بلوغ سن الرشد، وتقدر بثمانية عشر عاماً كأقصى مدة، وقد تقل عن ذلك ببعض السنوات، ويقضي العبد هذه الفترة الطويلة في التعلم والتدرب على تحمل مسؤولية ما يأتي وما يدع من الأفعال باختياره وإرادته، وحتى إذا أسيء تعليمه وتدريبه فإن بلوغه هذه السن يمكنه من تلافي النواقص وتصحيح الأخطاء، ولا يتحمل بعد بلوغه سن الرشد مسؤوليته أحد. فإذا صدر عن الإنسان بعد البلوغ خير أثيب عنه وإذا صدر عنه شر عوقب عليه، لأن الخير والشر من

صنعه وبإرادته وهذا ما قضى به الله أي حكم به وجعله ناموساً نافذ المفعول لا يتخلف أبداً.

لذلك أرسل الله الرسل الكرام وأنزل الكتب لشرح منهجه الاختياري وتعليم الناس كيفية تطبيقه، وإعلامهم بنتائج اختياراتهم وأعمالهم وتبشير المستجيبين الطائعين وإنذار العصاة المعرضين حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فلا يقول الواحد منهم: «يا رب لو أرسلت إلي رسولاً يبلغني منهجك ويرشدني إلى طريقتك لوجدتني سميعاً مطيعاً. يقول الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165].

فأين الإشكالية إذن في هذه القضية؟

الإشكالية تتمثل في توهم الإنسان أن الله عز وجل ألزمه بفعل الشيء ثم حمله مسؤوليته. فنحن لا نأتي شيئاً ولا ندعه ولا نبدي شيئاً ولا نعيده ولا نحسن ولا نسيء إلا بقدر الله وقضائه، يعني إن الله حكم علينا بأن نفعل ما نفعل وأن نترك ما نترك، فكيف يحمّلنا بعد ذلك مسؤولية أفعالنا ويحاسبنا عليها. ويثيبنا ان أحسنّا، ويعاقبنا ان أسأنا؟

يقول بعضهم: «إن أنا شربت الخمر فبقدر الله وإن زنيت فبقدر الله وإن سرقت فبقدر الله. فلم يعذبني الله بفعل شيء قضى به علي؟

إن هذه التساؤلات الاستنكارية ـ تعالى الله عنها علواً كبيراً ـ كلها صادرة عن سوء فهم لمضمون القضاء والقدر. ويعضهم يضيف إليها هذا السؤال الكفري الفاحش: أين عدل الله إذن؟ كيف يفرض علي فعلاً قبيحاً ثم يعاقبني عليه؟

وهنا يكمن سر الموضوع برمته. ذلكم أننا إذا وقفنا على المفهوم الصحيح للقضاء والقدر، انتهت الإشكالية، وبرح الخفاء، واقتنعت العقول، واطمأنت القلوب.

لذلك أقول لكل الحيارى المتسائلين اعلموا أن الله عز وجل قد حكم علينا بتنفيذ منهجه دون اختيار منا في أصل الاختيار.

وهذا الكلام قد يبدو غير واضح ويحتاج إلى شرح ذلك أن أصل الاختيار غير مفهوم.

وأصل الاختيار هو مبدأ الاختيار يعني أنك مجبر على أن تختار ولا تستطيع أن لا تختار على الإطلاق، لأن الله فرض عليك هذا الاختيار وجعلك تفعله دون إرادة منك. ولنضرب أمثلة لذلك: اختيار الأكل، واختيار الشرب، واختيار السمع، واختيار البصر، واختيار المحبة، واختيار الكراهية، واختيار الفرح، واختيار الحزن، واختيار النوم، واختيار اليقظة، كل هذه الاختيارات وغيرها هل يستطيع بشر فوق الأرض أن يستبدلها بأضدادها، فيقول: أنا لا أختار أو أختار أن لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا أسمع ولا أبصر ولا أفرح. . . أبداً لا يستطيع بشر أن يفعل ذلك على الإطلاق لأنه مجبر

على هذه الاختيارات لأنها ضمن منهج الله اللإرادي والله عز وجل لا يحمل واحداً منا مسؤولية هذه الاختيارات لذلك لا يترتب عن أصل الأكل أو الشرب أو النوم أو الكسب أو الفرح ثواب ولا عقاب. كما أنه لا يترتب على عمل المعدة والرئتين والقلب ثواب ولا عقاب.

إذن فعم نحن مسؤولون؟

إن مسؤوليتنا تتمثل في أحداث الاختيار. أي في وقوعه بالفعل. إذ وقتها فقط يبدأ الجانب الإرادي من منهج الاختيار. فأنت عندما أكلت اخترت ما أكلت خبزاً ولبناً وتمراً مثلاً، وكنت قادراً على أن تختار خبزاً ولحم ضأن مشوياً وعنباً. وتقدر أن تختار أيضاً كسكسا وبطاطا وبصلاً، وكنت قادراً على اختيار غير ذلك أي كنت قادراً على اختيار لحم الخنزير وقادراً على اختيار الطعام المغصوب أو المسروق.. الخ وإذا شربت فأنت قادر على اختيار شرب الماء أو عصير الفواكه الحلو أو اللبن كما كنت قادراً على اختيار شرب الخمر وهكذا في سائر شؤونك الحياتية المادية العملية أو حتى الوجدانية فأنت تستطيع اختيار الكلمة الطيبة أو الخبيثة إذا تكلمت، وتستطيع سماع الكلام الطيب أو الخبيث إذا استمعت، وتستطيع أن تحب الأخيار وتكره الظلمة الأشرار إذا أحببت وكرهت، وتستطيع أن تفعل عكس ذلك باختيار الأضداد إذا أردت، بحيث أن اختياراتك الآنفة كلها ذات وجهين وجه إجباري لا إرادة لك فيه وهو أصل الاختيار ووجه أرادي لأنك تستطيع أن تفعل هذا أو هذا. بحيث لا تستطيع أن لا تفعل على الإطلاق فأنت مجبر على الفعل لكن إذا

فعلت فأنت غير مجبر على اختيار نوع الفعل. ومسؤوليتك أمام الله تنحصر في الاختيار بعد وقوعه لا في أصل الاختيار قبل أن يقع. والاختيار بعد وقوعه عمل إرادي يباشره صاحبه بإرادة وقدرة منحهما الله إليه، فإذا اختار يختار بإرادة الله وإذا فعل يفعل بقدرة الله لأن الله هو الذي منحه حق الاختيار. وأقدره عليه. ومن أجل ذلك حمله مسؤولية ما يختار ويفعل. يقول عز وجل: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

إذن فهل أفعال العباد خارجة عن إرادة الله؟ أم أنها ضمن إرادته؟ أم أن بعضها يقع بإرادته وبعضها يقع دون إرادته؟

إن كل ما يصدر عن العباد من خير أو شر هو بإرادة الله المتمثلة في ناموس الاختيار المطلق، لا في الاختيار الواقع كم أسلفت.

ومن هنا نفهم أن مسؤولية الإنسان تنحصر في الحدث الفعلي الذي أوقعه باختياره هو، وعلى هذا الأساس يفهم قول الله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [القصص: 56].

أي لو شاء الله أن يلغي ناموس الاختيار لألغاه ووقتها يصبح الإنسان يفعل الخير دون سواه شأنه شأن الشجرة والنهر والبحر والشمس والقمر وغير ذلك من المخلوقات التي تنفذ قدر الله تنفيذاً لا إرادياً. وكذلك نفهم قول الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: 27 ـ 29].

أي أن مشيئتكم مهداة من عند الله، فتذكروا حين تختارون سبيل الاستقامة أن الله هو الذي مكنكم من هذا الاختيار، حين وضع لكم ناموسه ووهبكم مؤهلات الانتفاع به والاستفادة منه. لكن إذا اخترتم الانحراف والضلال فاعلموا أن ذلك من أنفسكم. لأنكم أنتم الذين لم تنتفعوا بعطاء الله المتمثل في الناموس العام، الذي يتيح لكم فرصة الفوز بالإستقامة والخير.

ولهذا يقول سبحانه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 79].

تبقى أمامنا في هذه القضية أربعة أسئلة تطرح نفسها وسأجيب عنها بإيجاز إن شاء الله لأنني استهدفت في هذا التأليف محاولة تحديث الطرح من جهة وتخفيف المادة من جهة ثانية حتى لا تثقل على القارىء المعاصر الذي ضاق وقته عن قراءة المطولات.

السؤال الأول: ما هو مفهوم هداية الله الواردة في عديد آيات القرآن مثل: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52] ومثل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9] ومثل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: 17].

السؤال الثاني: نعرف أن علم الله مطلق لأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا، ويعلم السر وأخفى، إذن فالله حتماً يعلم أن فلاناً الفلاني سيرتكب الجريمة الفلانية وسيفعل الفاحشة الفلانية وسيكون ذلك سبباً في هلاكه،

وعلم الله لا يتخلف أبداً، ومعنى ذلك أن هذا العبد محتوم عليه أن يفعل ما في علم الله ولا يمكن أن يفعل سواه والا تخلف علم الله، وذلك مستحيل على الله، فما ذنب هذا العبد الذي فعل شيئاً مكتوباً عليه أن يفعله لأنه سابق في علم ربه؟ ولماذا لم يَحُلِ اللّهُ بينه وبين تلك الجرائم والفواحش ما دام يعلم أنه سيفعلها؟

السؤال الثالث: ما هي الحكمة من منهج الله الذي وضعه لعباده، ثم قضى بأن ينفذوه مختارين ويتحملوا مسؤولية ما يختارون؟

السؤال الرابع: كيف نفسر ما نبتلى به من مصائب دون أن نكون متسببين في وقوعها بصفة مباشرة؟ فنقول بعد وقوعها: هذا قدر الله وقضاؤه. أي أنها ما وقعت إلا بإرادة الله وعلمه.

وللإجابة عن السؤال الأول أقول: إن هداية الله الواردة في عموم آيات القرآن الكريم تدور حول معنيين اثنين هما: الإرشاد والإعانة، وليس معناها إلغاء ناموس الاختيار الإرداي. لأن هذا الناموس باق وثابت، وما الهداية إلا تبيان لمنهج الله، وشرح لمطلوباته، وتحليل لنتائجه، وحث على اتباعه وإقناع بمردوده على الفرد والأمة حاضراً ومستقبلاً. وقد تم هذا كله عن طريق الكتاب والسنة بواسطة رسول الله ﷺ، الذي علم الناس دينهم وأرشدهم إلى سبل الهداية والفلاح.

ثم إن للهداية معنى ثانياً يتمثل في إعانة الله عز وجل لعبده بعدما يختار إذا اختار سبيل الهدى وتنكّب سبل الضلال. فما دام

العبد قد أحدث الاختيار وبدأ السير على طريقه وكان اختياره سديداً في اتجاه الاستجابة إلى مطلوبات الإسلام فإن الله عز وجل تفضل بإعانته وتيسير مهمته، وتخفيف متاعبه يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: 17].

فهل أنشأ الله لهم الاهتداء؟ لا وإنما أعانهم عليه بعدما اختاروه فزادهم هدى وأتاهم تقواهم. ويقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: 5 ـ 7] هو أعطى وخاف ربه وصدق بالحسنى، أي اختار الله وتحرى رضاءه وبدأ السير على طريقه، فوعده ربه بالتيسير والتخفيف حتى تقل أتعابه وتعظم مسراته، ولكي يزداد هذا المعنى وضوحاً نقارن أصحاب هذا الاختيار بأصحاب الاختيار المعاكس، وهم الذين اختاروا الضلال والانحراف. هؤلاء يمسك الله في بادىء الأمر عنهم عونه ومساندته لأنه تعالى لا يعين على الفساد ولا يساند المفسدين. يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: 28] ويقول: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: 109] فإذا لجّ المنحرفون في طغيانهم وتمسكوا بباطلهم وأصروا على ضلالهم جاءهم عقاب الله، فزادهم ضلالاً وزيغاً ليزيدهم عذاباً ونكالاً.

يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: 5].

ويقول سبحانه: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10].

إذن فناموس الاختيار الإرادي باق وما هداية الله إلا إرشاد للجميع وعون لمن اختار طريق الهدى أما السؤال الثاني: فإن الإجابة عنه من وجهين اثنين. أولهما إن صفة العلم صفة كشف وليست صفة فعل بحيث إذا علم الأستاذ أن التلميذ الفلاني أو الطالب الفلاني سيرسب في الامتحان ورسب بالفعل. فهل يكون علم الأستاذ سبباً في رسوبه؟ لا أبداً لأن أي عاقل لا يرى هذا الرأي، فصفة العلم صفة كشف وليست صفة تأثير وفعل.

ثم إذا كان الله عز وجل يعلم أن عبده فلاناً سيفعل كذا وكذا من المعاصي والموبقات وسيكون من أهل الشقاء والتعاسة ومن أهل النار. فهل معنى ذلك أن علم الله هو الذي أضل هذا العبد وقاده إلى نار الجحيم؟ لا أبداً.

وإذا قلنا أن العبد لا يمكنه أن يفعل إلا الشيء المكتوب عليه حسب علم الله عز وجل فلماذا يؤاخذ ويعاقب؟ أقول: إذا أعد المعلم قائمة في أسماء التلاميذ الذين سيفشلون في الامتحان حسب ما في علمه ووجهها للإدارة كما هو مطلوب منه كل عام. ثم فشل الأطفال المرسمون بالقائمة. فهل تكون كتابة أسمائهم بالقائمة هي التي تسببت في فشلهم ورسوبهم؟ لا يوجد عاقل يفكر بهذا المنطق الأحمق.

يبقى لماذا لم يحل الله تعالى بين من علم أنهم سيضلون وبين الضلال حتى ينقذهم من النار؟

∴ لو حصل ذلك لألغي ناموس الاختيار الإرادي، ولأصبح الإنسان ينفذ منهج الله بلا إراده ولا اختبار كما تفعل بقية المخلوقات وهذا غير وارد. لأن وروده يلغي الناموس ويلغي أبرز توابعه وهو تابع المسؤولية.

وهنا أحب أن أسأل أصحاب هذا المقترح أو الاعتراض أو النقد فأقول: ما رأيكم لو أعلنا عن مناظرة في ميدان ما. ثم قلنا للمشاركين سوف يقف إلى جانب كل مشارك أستاذ يصوبه إذا أخطأ، الأمر الذي يجعل نتائج كل المشاركين إيجابية صحيحة. وبالتالي يجعلهم جميعاً ناجحين. فهل يبقى للمناظرة معنى؟

ألا تصبح المناظرة مهزلة صبيان يلعبون؟ بينما ربنا عز وجل يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 16 و17].

ولو بادر الله كل من علم أنه سيضل بالتقويم المباشر والتصويب القسري لأصبح ناموس الاختيار الإرادي شعاراً زائفاً. ولعباً سخيفاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

أما السؤال الثالث: فالإجابة عنه تقتضي طرح السؤال التالي: هل السّائل مؤمن بالله أم هو غير مؤمن؟ إذا كان السائل مؤمناً نقول له: أنت آمنت بالله الواحد العليم القادر الحكيم المتصف بكل صفات الكمال المطلق. إذن فأنت تؤمن بأن الله حكيم وأن حكمته مطلقة، والكل يعلمون أن من كانت حكمته مطلقة ثابتة لا تصدر عنه

إلا الحكمة اليقينية المطلقة الثابتة. ومن ثم فأنت مؤمن بأن كل مخلوقات الله عز وجل قائمة على أساس حكمة بالغة ثابتة مطلقة ومن بين ما خلق الله هذا الناموس الذي وضعه ليحكم المنهج الذي أعده لضبط حركة عباده. وهو ناموس قائم على أساس حكمة يقينية ثابتة مطلقة. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن حكمة الله المطلقة لا تحدها حدود ونحن نريد أن نحيط بها بواسطة عقول قدرتها محدودة وإداركها مقيد وإصابتها للحقيقة مشكوك فيها. إذن فكيف يمكن للمحدود المتناهي أن يحيط بالمطلق الذي لا يتناهي؟

هذا مستحيل عقلاً. لكن يمكن للعقل أن يدرك بعض حكمة الله إداركاً إجمالياً فقط. لأن الإدراك التفصيلي يبقى سراً من أسرار الخالق التي قال عنها سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: 255].

وقديماً تساءل بعض الفلاسفة عن حكمة الله وأبدى بعضهم تشككه في وجودها وقالوا: «لا نرى حكمة في النقض بعد أحكام البناء. فمن بنى ثم نقض لا لمعنى ليس بحكيم».

ولقد أعجبني رد ابن الجوزي في كتابه «صيد الخاطر» عن هذا التساؤل الإنكاري. فقد قال: «أولسنا نرى المائدة المستحسنة بما عليها من فنون الطعام النظيف الظريف والفاكهة الجملية الطيبة. نرى ذلك كله يقطع ويمضغ وينقض بناؤه ويهدم ويفسد ولا ننكر من ذلك شيئاً ولا نصف ذلك بالإفساد لعلمنا بالمصلحة الباطنة فيه، فما المانع أن يكون فعل الحق سبحانه له باطن لا نعلمه؟».

إذن فمن حقنا أن نبحث عن حكمة الله مع يقيننا بوجودها. فإن أدركنا طرفاً منها فمن فضل الله علينا وإن لم ندرك شيئاً منها فلقصور فينا.

هذا إذا كان السائل مؤمناً. أما إذا كان غير مؤمن فمن العبث أن نناقشه في مقتضيات الإيمان، لذلك لا بد من أن نبدأ معه النقاش من موضوع الإيمان بالله، فإذا آمن واطمأن قلبه جاءت مقتضيات الإيمان عفوية بدون تعسف ولا عناد. فتداعت في ذهنه وانفتح لها قلبه واستوعبها عقله.

إذن فما هي الحكمة من ناموس الاختيار الإرداي؟ الحكمة عندنا هي أن الله عز وجل أراده فقدّره وقضى به.

وأما السؤال الرابع: إن الابتلاءات التي يتعرض لها الإنسان في الحياة والمصائب التي تحل به من مرض، وفقر، وفقد ولد، وخسارة مال، وغير ذلك مما يعيشه الناس يومياً، شيء يبتلى به المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والكبير والصغير، وفي ذلك كله حكمة بالغة لا ريب فيها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ..﴾ [البقرة: 155].

ومما يلفت الانتباه ويبعث على الحيرة أن نرى المسلم التقي والفاسق الشقي، والكافر المعاند، والمنافق الماكر، يصابون جميعاً بمصيبة واحدة. كحادث مرور، أو سقوط صاعقة، أو مرض معين،

أو خسارة مالية واحدة، فكيف نفسر ذلك؟ لنعلم أن الله عز وجل يبتلي الجميع بمصيبة واحدة لكن هذه المصيبة تؤدّي وظائف تختلف باختلاف من تحلّ بهم. فالكافر والمنافق تنزل بهما المصيبة للتنكيل والتعذيب والإذلال، والفاسق تنزل به المصيبة للتحذير والتنبيه والإنذار عساه يفيق، ويعود إلى الطريق ويتوب إلى الله.

والمؤمن الذي عصى ثم تاب تنزل به المصائب تكفيراً لذنوبه ومحواً لآثامه وتطهيراً لصحائف أعماله.

والمؤمن التقي النقي تحل به المصائب اعظاماً لأجره، وإعلاء لمنزلته لأنه سيقابلها بالصبر، والصابر يوفّى أجره بغير حساب. يقول الله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ * وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ * أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا . . .﴾ [الطلاق: 8 ـ 10].

﴿. . . وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: 101].

هكذا تنزل المصائب بالكافرين والمنافقين للعذاب، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، وأما المؤمنون والعصاة الفاسقون فيقول عز وجل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: 21] ويقول سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41].

أما المؤمنون الأتقياء الأنقياء فيبتليهم الله كما أسلفت لإعلاء درجاتهم. يقول سبحانه: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟

أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155 ـ 157].

وسئل رسول الله ﷺ عن موت الفجأة فقال: «راحة للمؤمن وحسرة على الكافر» يعني إن المصيبة نفسها تؤدي وظيفتين بحسب من تحل به.

وأخيراً لماذا تحل المصيبة بالرضيع الذي لا ذنب له؟ مصيبة الصبي متوجهة إلى أبويه خاصة وإلى أهله عامة. أما هو فإذا شاءت إرادة الله أن يكون وسيلة لابتلاء أبويه وأهله فإنه تعالى سيعوضه عن ذلك من العطاء والنعيم ما يجعله يتمنى لو استعمله ربه أكثر من مرة كوسيلة لابتلاء أهله. وما قيل عن الصبي ينسحب على المجنون والأكمه والأصم والأعمى. فإن الله تعالى يبتلي بهم أهلهم. ويعظ بهم غيرهم. ويدخر لهم من الأجز ما لا يعلم علمه إلا هو. وأفعال الله كلها حكم تعجز عقولنا عن الإحاطة بها كما أسلفت وَفَرْضُنا في مثل هذه القضايا هو الإيمان والاطمئنان والرضا والتسليم، وليتذكر كل منا قول الحق سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وما دمنا لا نعلم فلندع الأمر لمن يعلم ولنملأ قلوبنا بالاطمئنان إلى حكمة الملك الديان.

أنواع الذنوب والتوبة إلى الله

إن موضوعات علم التوحيد كثيرة، وتفصيل الكلام في جميعها يفضي حتماً إلى تضخيم هذه الرسالة الموجزة، التي أردت من ورائها تيسير الإلمام بما لا يجوز عدم الإلمام به. حتى يتمكن المسلم من امتلاك عقيدته ومن القدرة على حمايتها والمحافظة عليها وتبليغها. لكن من الموضوعات ما هو جدير بأن ينشر ويولى عناية خاصة، لما له من الأهمية القصوى، والتأثير البالغ على حاضر ومستقبل الفرد خاصة، والأمة عامة، كموضوع أنواع الذنوب وضرورة التوبة من جميعها، لأن الذنوب مخالفات ومفارقات تشكل تمرداً على قواعد السلوك التي تواضعت عليها الجماعة واتفقت على احترامها والإلتزام بها وصيانتها، بأمر من الله عز وجل تلقته الجماعة عن طريق رسول الله ﷺ، وكلنا يعلم أن الإخلال بقواعد السلوك ضمن الجماعة أمر يعود بأفدح الأضرار على من أخلّ وعلى الجماعة نفسها. لذلك وجب الحرص على حفظ وحماية قواعد السلوك

والتعامل حفظاً لسلامة العلاقات القائمة بين أفراد المجموعات، وصيانة لأمنها واستقرارها وتوازنها وتكاملها.

فما هي الذنوب إذن؟ إنها سلوكات تخلّ بالقواعد التي وضعها الحق جل جلاله لضبط حركة مخلوقاته، ولتنظيم العلاقات القائمة بينهم، حتى يكونوا في مستوى الخلافة صلاحاً وبناء وإبداعاً. لذلك نقول: إن كل ما خالف أمراً أو نهياً صادراً عن الله عز وجل أو عن رسول الله ﷺ يسمى ذنباً وإذا تتبعنا المخالفات التي تصدر عن العصاة المذنبين نجدها تتفاوت من حيث الأهمية والخطورة والضرر الذي تلحقه بالفرد وبالجماعة، ذلكم أن بعض المخالفات تنجم عنها انعكاسات خطيرة، وأضرار فادحة، وبعضها انعكاساتها أقل خطراً وأخف ضرراً، وفي كل خطر وضرر، إلا أن الحجم فقط يتفاوت من ذنب إلى آخر. فمن قتل نفساً بغير حق ليس كمن سرق ديناراً، فالأول أزهق نفساً كانت تملأ حيزاً من الوجود وتؤدي وظائف في صلب الوجود، ولها علاقات شتى بعديد مكونات الوجود، وقد يترتب عن قتل النفس خسائر فادحة للزوجة والأبناء والأبوين وللمصنع وللعديد من عناصر المحيط الذي كان يعيش فيه القتيل، ومن ثم فإن آثار إزهاق نفس كبيرة وخطيرة، بخلاف آثار سرقة الدينار فإنها أقل حجماً وأخف ضرراً، وهكذا لو تتبعنا أنواع الذنوب والمخالفات لوجدناها متفاوتة من حيث الانعكاسات السلبية الأمر الذي جعل هذه الذنوب والمخالفات تنقسم على الأقل إلى قسمين اثنين هما: الكبائر والصغائر.

الكبائر: جمع كبيرة وهي المعاصي التي لها آثار خطيرة على حاضر ومستقبل الفرد والأمة كما أسلفت، ويقول عنها ابن الصلاح: «كل ذنب كبر كبراً يصح معه أن يطلق عليه اسم الكبيرة، وهو تعريف عام غير ضابط للحقيقة ولا محيط بها، لذلك لا بد من تحديد أوصاف الكبيرة حتى إذا فعلت ـ لا قدر الله ـ عرفت ولو تتبعنا آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ لوقفنا على أربعة أوصاف للكبيرة يكفي أن يتوفر في الفعلة واحد منها لتسمى معصية كبيرة.

الوصف الأول: كل ذنب أوجب الله عز وجل على مرتكبه حداً فهو ذنب كبير كالزنا والسرقة وقذف المحصنات. . . الخ، يقول سبحانه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2] ويقول سبحانه: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: 38] ويقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: 4].

الوصف الثاني: الذنب الذي توعد الله تعالى فاعله بالعقاب ذنب كبير. فالله تعالى توعد الذين يضعون مطلوبات الإسلام أمامهم على موائد أهوائهم، فيختارون منها ما يروقهم ويريح نفوسهم. ويحقق رغائبهم ولا يحرمهم من شهواتهم، ويرفضون ما عدا ذلك. فمنهم مثلاً من يقبل الحج إلى بيت الله الحرام لما فيه من متعة وسياحة وقضاء بعض الحاجات والفوز بلقب مشرف إلى غير ذلك مما تحبه النفس، لكنه في الوقت نفسه يرفض الزكاة لأنها خسارة مال دون

مقابل، ويرفض الصلاة ما فيها من كبير المشقة، وقد يرفض الصيام أو يصوم لأنه عادة الآباء والأجداد ولأن شهر رمضان جوه شائق بما يزخر به من صنوف اللهو واللعب. يقول الله تعالى عن هؤلاء الناس:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 85].

وتوعد الله تعالى بالعقاب الشديد ناساً كتموا ما أنزل الله طمعاً فيما عند البشر أعني أنهم اشتروا به ثمناً قليلاً، أفتوا إرضاء لمن طمعوا فيما عندهم فأصابوا من دنياهم وتفادوا غضبهم وكتموا ما أنزل الله. فقال عز وجل في شأنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174].

الوصف الثالث: هو أن يصف الله تعالى فاعل المعصية بالفسق. لذلك كانت كل معصية وصف صاحبها بالفسق كبيرة من الكبائر. فالذين تصرفوا في شرائع الله وأحكامه وعطلوا ما أرادوا وحوروا ما حلا لهم وحكموا في أمهات القضايا بغير ما أنزل الله وصفهم جل جلاله بالفاسقين فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: 47].

ثم إن الذين يؤثرون أموالهم وأبناءهم ونساءهم ومساكنهم وعشائرهم وتجارتهم على الله ورسوله والجهاد في سبيل الله نعتهم الله بالفاسقين وتوعدهم بالعقاب الأليم. فقد قال وهو أصدق القائلين: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

الوصف الرابع: أن يلعن الله أو رسوله فاعل المعصية، فيكون ذلك دليلاً على أنها كبيرة. فالذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويتنكرون لكل أو لجل مقتضيات الإيمان الذي يتضمن حتماً عهداً قطعه المؤمن على نفسه بأن يلتزم بالمقتضيات ويستجيب للمطلوبات ويترك المعاصي ويفعل الطاعات. فإذا لم يف المؤمن بما عاهد الله عليه كان ناقضاً لعقد الإيمان، قاطعاً لما أمر الله به أن يوصل مفسداً في الأرض، لذلك استحق لعنة الله أي طرده وإبعاده من رحمته، وكل من لعنه الله كان ذنبه كبيراً وإثمه خطيراً. يقول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: 25].

هذا ولقد اتفق على أن الشرك بالله تعالى هو أكبر الكبائر على الإطلاق، ويليه قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، فإذا وجدنا في سنة رسول الله ﷺ أن الزنا أو اللواط أو عقوق الوالدين أو السحر أو

القذف أو الفرار يوم الزحف أو أكل الربا منعوتاً بأكبر الكبائر فمعناه أنها من أكبر الكبائر.

الصغائر: جمع صغيرة، والصغيرة هي المعصية التي لم تبلغ حد الكبيرة ولم يتوفر فيها وصف من أوصافها الأربعة، كتبرج المرأة، وكالنظر إلى محارم الناس، وكالجلوس في الطرقات دون إعطاء الطريق حقها إلى غير ذلك. لكن الذي ينبغي أن لا يفوتنا هو أن الصغائر قد تنقلب كبائر إذا توفرت فيها أوصاف أيضاً. ومن الأوصاف التي تحول الصغائر إلى كبائر ما يلي:

الإصرار: وهو أن يعود العاصي إلى ارتكاب المعصية باستمرار مع نية العودة، فإن عاد بدون نية، كأن غلبته نفسه، وطغت عليه جهالته فأعاد المعصية لم يكن ذلك إصراراً على الأصح.

الاستخفاف بالمعصية وعدم المبالاة بها: وهو ما يقود إلى تطبيعها كما أسلفت في مبحث سابق لذلك كان الاستخفاف بالمعصية الصغيرة سبباً في تحويلها إلى معصية كبيرة.

الفرح والافتخار بها: بحيث يصبح ارتكاب المعصية عاملاً من عوامل البهجة والسرور والاعتزاز. إذ أن صاحبها في هذه الحالة يصير طلائعياً وريادياً ومجدداً ومطوراً ومعصراً وبهذا تصبح الصغيرة كبيرة.

صدورها ممن يقتدى به: المعصية الصغيرة إذا صدرت عن واحد من رجال العلم المعروفين، أو عن إمام من أيمة الصلاة أو الخطابة أو عن واعظ مدرس يعظ الناس ويعلمهم دينهم مثلاً. إذا صدرت

الصغيرة عن واحد من هؤلاء فإنها تكون كبيرة من أول مرة، لأنهم يقتدى بهم ويتبعون، ولأن المعصية إذا صدرت عنهم أضفيت الصبغة الشرعية.

ويلحق بالذين ذكرتهم كل من يقتدى به كالأب والأم والأخ الكبير، والرجل الوجيه وذوي السلطان كالأمير والوزير والوالي والقاضي... الخ.

التوبة من الذنوب جميعها واجبة

إن المطلوب من المسلم أن لا يعصي ربه يقول جل جلاله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ . .﴾ لكن الإنسان معرض للأخطاء، فإذا وقع في معصية كبيرة كانت أو صغيرة صار فرضه تعجيل التوبة من تلك المعصية. إذن قبل المعصية فرضه الطاعة وبعد الوقوع في المعصية يصير فرضه التوبة إلى الله والتوبة واجبة على المذنب فوراً دون تأخير لأن تأخيرها يعد ذنباً آخر يضاف إلى الذنب الأول لأنه كلما تأخرت التوبة تكررت المعصية وكلما تكررت المعصية تضاعف الإثم. وكلما تضاعف الإثم تضاعف العقاب. لذلك وجب على العاصي أن يعجل بالتوبة وأن لا يؤخرها حتى لا يتضاعف عقابه من ناحية وخشية أن تفاجئه المنية وهو مصر على المعصية من ناحية ثانية. فإذا تاب المسلم من الذنب ثم عاد لما تاب منه كان عليه أن يجدد التوبة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ وهم الذين كلما أذنبوا تابوا وفي الحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

فما هي التوبة؟ التوبة هي عمل يقوم به المذنب يؤدي إلى إبراء ذمته من الذنب وإسقاط العقاب عنه بفضل من الله ورحمة. وهذا العمل لا يؤدي الوظيفة المشار إليها إلا إذا توفرت فيه شروط هي:

1 ـ **الشرط الأول:** الإقلاع عن الذنب إقلاعاً تاماً فلا تصح توبة الغاش مثلاً إلا إذا أقلع عن الغش، ولا تصح توبة الكذاب إلا إذا أقلع عن الكذب.

2 ـ **الشرط الثاني:** الندم على فعل المعصية لوجه الله تعالى، فلا تصح توبة من لم يندم أو ندم لغير وجه الله كان ندم لأجل مصيبة حصلت له أو ندم لأجل منفعة فاتته.

3 ـ **الشرط الثالث:** العزم على أن لا يعود إلى مثلها أبداً فلا تصح توبة من لم يعزم على عدم العود، أو كان ينوي العود.

4 ـ **الشرط الرابع:** إذا تعلقت المعصية بآدمي كالسرقة والغصب والغيبة مثلاً، فإن التوبة لا تصح إلا برد الظلامة إلى صاحبها أو تحصيل البراءة منه إجمالاً ـ كان تقول له سرقت من مالك كذا أو نلت من عرضك بكذا، فيقول لك سامحتك لوجه الله. أو يطلب منك رد المسروق مثلاً... فإذا لم يستطع التائب أن يرد المظالم أو يتحصل على البراءة نظراً لبعد الثقة أو لكثرة من آذاهم فالمطلوب منه الإخلاص وكثرة التضرع إلى الله لعله يرضي عنه خصماءه يوم القيامة.

5 ـ **الشرط الخامس:** أن يتوب المذنب قبل الغرغرة وهي حالة

النزع لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: 18].

6 ـ **الشرط السادس**: أن يتوب قبل أن تطلع الشمس من مغربها ويغلق باب التوبة فيسمع له دوي وباب التوبة كما ورد في الحديث مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها. فإذا طلعت من المغرب أغلق.

أما قبول التوبة فأمره يتوقف على اكتمال الشروط وإخلاص التائب وصدق توبته فإذا حصل ذلك كله كان الرجاء في قبول الله تعالى توبته أكيداً لقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: 25].

ولقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [التحريم: 8].

والمطلوب منا أن نتحدث عن صحة التوبة وندع الحديث عن قبولها لأن قبول أعمالنا بيد الله لا يعلمه إلا الله. أما نحن فلا نملك إلا الرجاء وحسن الظن بالله.

الدعــاء

الدعاء في صيغته العامة طلب والطلب كثيراً ما يبنى في هيكله اللفظي بناء الأمر، ووقتها نتساءل: هل هو أمر أم دعاء؟ لنعلم أن للطلب مراتب ثلاثاً هي:

1 ـ أن يصدر الطلب من الكبير إلى الصغير أي من الرئيس إلى المرؤوس، وفي هذه الحالة يكون الطلب أمراً. فعندما يقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: 70] يكون قد أمر عباده المؤمنين بالتقوى والقول السديد. وعندما يقول الأستاذ لتلميذه: «قف وأجب عن السؤال». يكون قد أمره بالوقوف والإجابة عن السؤال.

وهكذا يكون كل طلب صادر من الأعلى إلى الأدنى أمراً.

2 ـ أن يصدر الطلب من المساوي إلى من يساويه في المنزلة والمسؤولية كأن يقول الصديق لصديقه: أعطني كتاب الفقه. فهذا ليس أمراً، لأنّ منزلة الصديق لا تؤهّله لإصدار الأوامر

إلى صديقه وإنما هو التماس، فالصديق يلتمس من صديقه أن يقضي له حاجة.

3 ـ أن يصدر الطلب من الأدنى إلى الأعلى كان يقول العبد: «ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين» فالعبد هنا طلب من الله أن يهب له زوجة صالحة يسر بها، وأبناء طيبين يفرح بهم. فهل يكون طلبه هذا أمراً؟ لا لأن الأمر طلب يصدر من الأعلى إلى الأدنى، وهل يكون طلبه هذا التماساً؟ لا أيضاً لأن الالتماس طلب يصدر من الإنسان إلى من يساويه في المنزلة. إذن فماذا يكون هذا الطلب الذي صدر من الأدنى إلى الأعلى أي من العبد إلى ربه؟ إنه الدعاء.

إذن فالدعاء طلب يصدر من الأدنى إلى الأعلى وأجلى صوره طلب العبد شيئاً من ربه.

دلالات الدعاء: إن أولى دلالات تتمثل في إحساس العبد بضعفه وفقره والحاجة إلى عون ربه. لذلك يلجأ إليه ويضع حاجاته بين يديه، راجياً أن يقضيها برحمة منه، ومن هنا تأتي الدلالة الثانية المتمثلة في اعتراف العبد بوجود ربه وقدرته على فعل ما يعجز عن فعله البشر، وقربه من عبده قرباً يتجلى في سماعه النداء سواء جهر العبد أو خافت بالدعاء.

الدلالة الثالثة تتمثل في سطوع أنوار برهان مادّي حسّي تراه العين وتسمعه الأذن وتلمسه اليد يشهد لله عز وجل بالوجود والقرب

والقدرة، ويخرس ألسنة الملحدين على مختلف أيديولوجياتهم. والأمثلة على هذا البرهان المادي لا تدخل تحت حصر، فكم مرّة انحبس غيث السماء، وعم القحط وهلك الزرع وجف الضرع وأصبح الناس والدواب مهددين بالجوع والفناء، فخرج المؤمنون إلى مصلاّهم بعد أن تابوا وأنابوا إلى ربّهم وردّوا المظالم وتحللوا مما تعلق بذممهم من حقوق الآخرين، وتوجهوا إلى ربهم خاشعين منيبين، واسترحموه أذلاء خاضعين، ورجوه طامعين موقنين، وذرفوا بين يديه دموع الضعف والفقر متوسلين، فلم يغادروا مصلاّهم حتى تلبّدت السماء بالسحب وأومض البرق وقصف الرعد وأرسل الله عليهم السماء مدراراً، فرجعوا إلى بيوتهم مبتلين، فقد سمع الله نداءهم وأجاب دعاءهم ورحم ضعفهم ورفع غضبه عنهم، وأحيا أرضهم وأعاد البهجة إلى قلوبهم. وهذا لم يحدث في التاريخ مرة وإنما حدث أكثر من ألف مرة. يقول الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر سابقاً رحمة الله عليه:

«ولقد حدث في مصر أن أحد الأثرياء الصالحين لم يجد سبيلاً ـ في فترة من الفترات ـ لري أرضه وقد كاد الزرع يصبح حطاماً، فجلس الرجل وسط مزرعته الفسيحة وقال: اللهم إنك قلت وقولك الحق ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: 10 و11] وها أنا ذا يا رب أستغفرك راجياً أن تفيض علينا من رحمتك. ثم أخذ في الاستغفار.. ومضت ساعات وهو يتابع الاستغفار في همة وثقة بموعود الله تعالى وإذا بالسماء تتلبد

بالغيوم... وإذا بالمطر ينزل فياضاً مدرارا».

ثم كم مريضاً أعيت علّته الطب وأعجزت الأطباء، فاتجه إلى الله وضرع إليه بالدعاء متوسلاً بأسمائه الحسنى ساكباً بين يديه دموع الحاجة والألم والرجاء. فإذا بفجر الشفاء ينبثق نوره من أفق كان يخيم عليه ظلام اليأس والقنوط، وما ذلك إلا لأن الله عز وجل لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وليس معنى هذا أن نعزف عن الطب والأطباء ونلجأ فقط إلى الدعاء. لأن الطب والأطباء أسباب خلقها الله وأمرنا بتعاطيها في هذا الكون المحكوم بالأسباب، لكن عندما يقف الطب عاجزاً ويرفع يديه مستسلماً، فإن الله لا يعجز فألجأ إليه صادقاً مخلصاً وسترى أنه قريب سميع مجيب.

كثيرون منا اطلعوا على كتاب «فلا تنس الله» للسيدة المغربية التي كانت تعيش في قمة الحياة العصرية، وكانت مع زوجها في أوج التقدمية العلمانية. ناهيكم أنها اكتشفت إصابة ثديها ـ عافاكم الله ـ بالسرطان أثناء سباحتها مع زوجها في مسبح أحد الفنادق السياحية بالمغرب الأقصى، فهرعت إلى الأطباء فأكدوا لها الإصابة بهذا الداء الذي ليس له دواء، فطارت ـ وهي امرأة ثرية وزوجها موظف كبير يملك ثروة طائلة ـ طارت إلى بلجيكا فعالجها أطباء بلجيكا فلم تزد علتها إلا استفحالاً، فتحولت إلى أشهر أطباء باريس، فما أغنى عنها أطباء باريس شيئاً، حتى قال كبيرهم ذات يوم لزوجها على انفراد وهي تتسمع: خذ زوجك وارجع إلى المغرب بلدك وانتظر ساعة نهايتها لقد استفحل فيه الداء، ولم يعد يجدي معه دواء وحالما خرج

زوجها من مكتب الطبيب قالت له عجل وأتمم إجراءات السفر إلى البقاع المقدسة إلى بيت الله الحرام، وإلى قبر سيدنا محمد ﷺ خير الأنام، فارتاح الزوج لاقتراحها الذي جاء في أحرج فترة من تاريخ حياتهما، وأتم كل الإجراءات وركبا إلى مكة المكرمة، وهناك أديا سنة العمرة، ثم عكفت الزوج المريضة في رحاب بيت الله تبيت وتصبح، تشرب ماء زمزم وتصب منه على جسدها وتكتفي من الأكل في اليوم والليلة برغيف خبز رقيق وبيضة دجاج مسلوقة وتقضي بياض نهارها وجل سواد ليلها ضارعة إلى ربها تذرف دموع الذلة والمسكنة معلنة توبتها راجية من الله شفاءها من علتها. ومضت أيام قبل أن تتفقد ذات يوم جسدها الداخلي الذي كان مشوهاً بعديد الإصابات المنتشرة في أرجائه، فإذا بها تذهل، وإذا بها تنتشي، وإذا بها تخر ساجدة لله باكية بكاء طويلاً حمداً وشكراً لربّها الذي سمع نداءها وأجاب دعاءها وشفاها من علتها التي يئس من مقاومتها كبار أطباء أوروبا. لقد زالت كل الآثار، لقد عاد جسمها كما كان صفاء وجمالاً ورواء وعافية وحيوية ونشاطاً، فهرعت إلى الفندق الذي تنزل فيه مع زوجها، حيث كان زوجها لا يزال نائماً، فطرقت عليه الباب ودخلت معلنة في نشوة وسرور أنها شفيت بإذن الله، وخلعت بعض ملابسها لتكشف لزوجها من جسمها المناطق التي كانت مصابة حتى يتأكدا من أن الشفاء كان شاملاً والحمد لله، وذهل زوجها ورفع صوته بالتكبير: الله أكبر، الله أكبر. لم يبق أي أثر للمرض لقد شفيت تماماً فلله الحمد. ولما عادت هذه السيدة إلى أوروبا

وعرضت نفسها على أطبائها الذين باشروها بالعلاج حتى يئسوا من شفائها قال لها أحدهم: يستحيل أن تكون فلانة التي كنت أعالجها هي أنت. والقصة شائقة أعدتها السيدة بنفسها في كتيب بعنوان «فلا تنس الله» وذيّلتها بالوصفات الطبية والشهائد والتقارير المحررة من قبل أطباء المغرب وبلجيكا وفرنسا. وقد نذرت نفسها للدعوة إلى الله ما دامت حية. فماذا تعني هذه الأحداث؟ إنها تنطق بلسان المحسوس والملموس شاهدة لله تعالى بالوجود والقدرة والقرب والعلم والسمع والبصر وكل صفات الكمال؟

وهنا قد يقول بعض المتعلمنين: أن الشفاء في مثل هذه الحالات يكون نتيجة الحالة النفسية. وهذا من تأثير العقائد.

يقول الشيخ الزنداني: «وعجباً هل إذا أعتقدت الآن أنك قادر على الطيران بدون آلة سوف يؤثر فيك هذا الاعتقاد فتطير؟ والدعاء عبادة، لأن الذي يدعو الله عز وجل يضع نفسه في منزلة العبودية، معترفاً له بالقدرة الكاملة والعلم المطلق، معلناً أن الله بيده مقاليد السماوات والأرض وأنه المالك لكل شيء والمتصرف في كل شيء، وأن قوانين الأسباب هو وحده القادر على التحكم فيها. ولهذا فإن الدعاء عبادة إذ هو اعتراف لله بكل صفات الكمال وخضوع وتذلل له والتجاء إليه. يقول جل جلاله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60] ويقول ﷺ «**إن الدعاء هو العبادة**» (رواه أبو داود والترمذي) ويقول: «**الدعاء مخ العبادة**» (رواه الترمذي) وللدعاء آداب يجب احترامها

والالتزام بمطلوباتها حتى يفتح الله لدعائك أبواب السماء ويستجيب لك إذا قلت يا رب قال الله: لبيك عبدي.

1 ـ **الأدب الأول:** أن تعتقد جازم الاعتقاد أن الله وحده هو الذي يملك كل شيء ويتصرف تصرفاً مطلقاً في كل شيء، وإنه هو النافع وهو الضارّ وهو المعطي وهو المانع وإنه جل جلاله إذا وعد وفى، وإنه قال لنا جميعاً: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60] لكنه قال لنا أيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

وبذلك حدد الله عز وجل معالم الطريق للفوز بالإجابة اليقينية حين قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ فجعل الإيمان الصادق والاستجابة الانطباقية لكل ما أمر الله به أو نهى عنه شرطين لا بد من توفرهما ليجيب الله تعالى دعوة الداعي إذا دعاه.

2 ـ **الأدب الثاني:** أن تدعو ربك وقلبك حاضر ويقينك جازم بأن الله يسمع نداءك سيجيب دعاءك يقول رسول الله ﷺ: «**القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل (رواه أحمد بإسناد حسن)**.

3 ـ **الأدب الثالث:** لا تستعجل الإجابة فإن الله عز وجل قد يؤخرها لحكمة يعلمها ولا نعلمها نحن، لذلك عليك أخا الإسلام أن

تواصل الدعاء والإلحاح بهمة ويقين ولا تقل أبداً دعوت الله كثيراً فلم يستجب لي. يقول رسول الله ﷺ: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي**» (رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة).

4 ـ **الأدب الرابع**: أن لا تدعو الله تعالى بإثم أو قطيعة رحم، فمن سأل الله أن ييسر له فعل محرم مثلاً كشرب الخمر أو الزنا أو ما ماثل ذلك، أو سأل الله أنْ يعينه على قطع أرحامه فإنه عز وجل لا يسمع نداءه ولا يجيب دعاءه لأنه دعا بشر وفي دعائه قطيعة رحم. يقول رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجّل له دعوته، وأما أن يدّخرها له في الآخرة وأما أن يصرف عنه من السوء مثلها**». فقال الحاضرون: إذن نكثر في الدعاء فإنه لا يضيع فقال لهم عليه الصلاة والسلام «الله أكثر» (رواه أحمد والبزار وأبو يعلى والحاكم).

5 ـ **الأدب الخامس**: أن لا ترفع صوتك بالدعاء لأن الله سميع قريب وعندما أخبرنا جل جلاله عن دعاء نبيه زكريا قال: «إذ نادى ربه نداء خفياً» قال أبو موسى الأشعري: «رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس، أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً**».

6 ـ **الأدب السادس**: أن تكون من المهتدين الذين يلزمون أنفسهم

بالرعاية والصيانة ويحملونها على الاستقامة، ولا يتركون واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنّ أداء هذا الواجب من تمام الاستقامة والاهتداء، وما لا يتم الشيء إلا به يكون هو الشيء كله، والإنسان لا يكون مهتدياً إلا إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر. فإذا لم يفعل كان من أبعد الناس عن الاهتداء والاستقامة، ووقتها لا يقبل الله تعالى له دعاء ولا يسمع منه نداء. وكيف يقبل الله دعاء ناس خالفوا أمره وعصوه؟ ألم يقل لهم: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104].

يقول رسول الله ﷺ: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم**» (رواه الترمذي).

7 ـ **الأدب السابع**: «أَطِبْ مطعمك يُسْتَجَبْ دعاؤك» هكذا أجاب رسول الله ﷺ الصحابي الذي سأله أن يدعو الله ليجعله مستجاب الدعاء. فقال له عليك أن تتحرى الحلال في المأكل والمشرب وذلك لأن الذي لا يبالي بما يأكل ولا بما يشرب فيدخل ما حرم الله في بطنه فينبت منه لحمه ويتكون منه دمه فيخبث كله ـ عافاكم الله ـ فلا يفتح الله له باب السماء ولا يجيب له دعاء. يقول ﷺ: «**ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه**

حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك» (رواه مسلم).

دعاء غير الله شرك: سبق أن قلت أن رسول الله ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**» فإذا دعا الإنسان غير الله فقد عبده وأي شرك أفدح من عبادة غير الله؟ لذلك فإن أي إنسان يدعو غير الله ظاناً أن له قدرة أو أن له مشاركة مع الله في تصريف الأمور وإدارة شؤون الكون فقد أشرك. يقول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 18] ويقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: 20].

الدعاء استعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وما دام الدعاء استعانة فإن الإنسان عليه أن يتعاطى كل الأسباب التي أتاحها الله له من حرث وزرع وسقي ومداواة وغير ذلك من الأسباب المادية المشروعة والتي تدخل في نطاق سنة الأسباب التي أرادها الله وقضى بها، بعد ذلك يأتي الدعاء وتأتي الاستعانة بالله ليزيل العوائق التي قد تقف في وجه الأسباب أو ليتجاوز الأسباب كلها لأنه تعالى إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون. فالمريض عليه أن يتوجه إلى الطبيب المختص وأن يتعاطى الأدوية ووقتها يسأل الله الشفاء وطالب العلم عليه أن يجتهد في قاعة الدرس وأن يصغي إلى أستاذه بعناية وأن ينكب على المراجعة بحزم ثم يسأل الله النجاح، أما أن يتخلى الإنسان عن تعاطي الأسباب ويسأل الله أن يقضي حاجاته فهذا الدعاء ليس استعانة وإنما هو استخدام فكأنّ العبد لا يقول: يا رب أعني وإنما يقول: يا رب اخدمني، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لذلك

فمن أراد أن يدعو ربه ويسأله شيئاً فليقدم بين يدي سؤاله تعاطي الأسباب المادية الموصلة لذلك الشيء.

وأخيراً فإن أعظم ما نسأل الله عز وجل به هو أسماؤه الحسنى فلندع ربنا بأسمائه حتى نضمن لأنفسنا أوفر حظوظ الاستجابة بإذن الله: يقول جل شأنه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180] ومن أفضل ما ندعو به ما كان مأثوراً عن رسول الله ﷺ. فإذا وفّقنا إلى حفظ جملة من المأثورات وإلى التوجه بها إلى الله فذلك من تمام نعمة الله علينا، خاصة إذا استشعرنا بعمق أثناء الدعاء أننا نتوجه إلى الله بما توجه إليه رسوله الكريم ﷺ، وأن الله لم يردّ طلباً، ولم يرفض دعاء، ولم يخيّب أملاً لرسوله. ونحن نرجو أن يعطينا مما أعطاه وأن يرضينا كما أرضاه. والأدعية المأثورة لا تدخل تحت حصر ويكفي أن نستعرض نماذج منها عسى أن تكون حافزاً لنا حتى نرجع إلى أمهات مصادر الحديث لنستمد منها ما يروي ظمآنا ويشفي غليلنا ويزودنا بفيض من هديه ﷺ.

لقد كان أكثر دعائه ﷺ: **«يا مثبّت القلوب ثبّت قلبي على دينك»** (رواه الترمذي) وكان كثيراً ما يدعو في سجوده بهذا الدعَاء: **«اللهم إني أسألك العفو والعافية والتوفيق وحسن الختام»**.

وكان إذا أصبح يقول: **«أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين، اللهم إني أسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما قبله وشر ما بعده»** (رواه أبو داود).

وقال ﷺ: «من قال حين يمسي أو حين يصبح: «اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن محمداً عبدك ورسولك» اعتق الله ربعه من النار فمن قالها مرتين أعتق الله نصفه فمن قالها ثلاثاً أعتق الله ثلاثة أرباعه فإن قالها أربعاً أعتقه الله من النار» (رواه أبو داود عن أنس رضي الله عنه).

وقال ﷺ: «من قال حين يسمع المؤذن: «وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً» غفر الله له ما تقدم من ذنبه» (رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه).

وقال ﷺ من قال حين يسمع النداء «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته «حلت له شفاعتي يوم القيامة» (رواه أحمد والبخاري وغيرهما).

وقال النبي ﷺ لأم سلمة: «قولي عند أذان المغرب «اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لي» (رواه الترمذي والطبراني والحاكم).

وقال ﷺ: «إذا صليت الصبح فقل قبل أن تكلم أحداً من الناس «اللهم أجرني من النار» سبع مرات فإنك إن مت من يومك هذا كتب الله لك جواراً من النار وإذا صليت المغرب فقل قبل أن تكلم أحداً من الناس «اللهم أجرني من النار» سبع مرات فإنك إن مت من ليلتك

كتب الله لك جواراً من النار» (رواه أحمد وأبو داود والترمذي).

وقال ﷺ: **«من قال إذا خرج من بيته (بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله) يقال له: كفيت ووقيت وهديت وتنحّى عنه الشيطان»** (رواه أبو داود والترمذي).

وقال ﷺ: **«يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك»** (رواه الترمذي).

وكان ﷺ إذا دخل السوق قال: **«بسم الله اللهم إني أسألك من خير هذه السوق وخير ما فيها وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرة أو صفقة خاسرة»** (رواه الطبراني والحاكم).

وكان إذا دخل المسجد قال: **«بسم الله والسلام على رسول الله اللهم اغفر لي ذنوبي وأفتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج قال: بسم الله والسلام على رسول الله اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك»** (رواه أحمد وابن ماجه والطبراني عن فاطمة الزهراء).

وكان ﷺ إذا لبس ثوباً أو قميصاً أو رداء أو عمامة يقول: **«اللهم إني أسألك من خيره وخير ما هو له وأعوذ بك من شره وشر ما هو له»** (رواه ابن السني).

وكان ﷺ إذا دخل الخلاء قال: **«بسم الله اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»** (رواه البخاري ومسلم).

وكان ﷺ إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما

وقرأ فيهما «قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس» ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات» (رواه البخاري ومسلم عن عائشة).

وقال ﷺ: «من قال حين يأوي إلى فراشه «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه» ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر وإن كانت عدد النجوم وإن كانت عدد رمل عالج وإن كانت عدد أيام الدنيا» (رواه الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه).

وقال ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم ليضطجع على شقه الأيمن ثم ليقل: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إذا أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» (رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه).

وكان ﷺ إذا استيقظ من نومه قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» (من حديث رواه أحمد والبخاري ومسلم).

وقال ﷺ: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوء للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: «اللهم أسلمت نفسي إليك وجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك، وفوضت أمري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي

أنزلت وبنبيك الذي أرسلت» فإن مت من ليلتك مت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به» (رواه أحمد والبخاري ومسلم).

وقال ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى في أوله فإذا نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل: «بسم الله أوله وآخره» (رواه أبو داود والترمذي والحاكم).

وقال ﷺ: «من أكل طعاماً ثم قال: «الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة» غفر له ما تقدم من ذنبه» (رواه أحمد وأبو داود والترمذي).

وكان ﷺ إذا فرغ من طعامه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين» (رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي).

وكان ﷺ إذا رأى الهلال قال: «اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى ربي وربك الله» (رواه أحمد والترمذي والطبراني والحاكم).

وكان ﷺ إذا نظر في المرآة قال: «الحمد لله الذي سوّى خلقي فعدّله وكرّم صورة وجهي فحسّنها وجعلني من المسلمين» (رواه ابن النسير).

وقال ﷺ: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك» (رواه الترمذي وابن حبان والحاكم).

وبعد فهذه نماذج فقط تمثل غيظاً من فيض وقطرة من بحر فمن أراد الإستزادة والارتواء فليرجع إلى كتب السنة فسيجد فيها ما يغنيه ويكفيه من أدعية رسول الله ﷺ وليست صيغ هذه الأدعية فرضاً مفروضاً على المسلم بحيث لا يجوز له أن يدعو الله بغيرها بل هي فقط أفضل الصيغ وأزكاها وأبركها لأنها صادرة عن أعرف الناس بالله وأتقاهم لله وأفصحهم لساناً وأكملهم إيماناً، فإذا عجز الإنسان عن حفظ المأثورات فليدع الله بما استطاع من الكلام الطيب فالمهم هو صدق التوجه وصفاء النية ومطلق اليقين.

حفظ الكليات

والكليات جمع كلية والكلية هي التي تتضمن الكل، وإن تعددت الكليات فإن كل واحدة منها تتضمن جميعها بالاعتبارين المعنوي أولاً والحسّي ثانياً. ذلكم أن الكلية قد تغطي الإنسان كله قيماً ومحسوسات، ووقتها تنسحب مظلتها على بقية الكليات، وبهذا تصبح كل كلية تغطي سائر الكليات، ومن ثم صح أن نسميها كلية.

وحفظ الكليات أمر متأكد إلى حد الوجوب، ولازم إلى غاية الإلزام، ومفروض إلى درجة الفرض، لأنه لا وجود بدونها، ولا دين في غيابها، ولا بناء يقام إلا على دعائمها. فهي الثوابت التي تشكل قاعدة الوجود، وعليها يقام بناء كل موجود، فإذا اهتزت أو انهدت انهار البناء ووئد الموجود، وصار وجوده وَهْماً في منظومة الوجود.

ولنضرب مثلاً لذلك، وليكن كلية مادية تبدو صرفة في ماديتها، وهي كلية المال وقد يحس الإنسان من أول وهلة إن هذه الكلية

تشكل مفارقة قيمية تتناقض مع المضمون العام للكلية، إذ أن المال لا يحتوي الإنسان ولا يشمله، ولا يغطي كل جوانب وجوده، فكيف يصح اعتباره كلية؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46] فهل ترقى الزينة إلى مستوى ما يتوقف على توفره اكتمال الوجود؟ أقول: إن هذا الاعتراض ناجم عن فهم بعضي لمفهوم المال، إذ أن جلنا لا يتصور المال إلا ذهباً وفضة ونقوداً وبساتين وقصوراً وما إلى ذلك، بينما المال ليس ذلك وحسب، وإنما المال هو لقمة الغذاء، وخرقة الكساء وكنّ الصباح والمساء، فهل تتصورون وجوداً لمن فقد الغذاء والكساء والمأوى؟ ثم هل تتصورون ازدهاراً قيمياً وسمواً أخلاقياً وعروجاً فكرياً في غيابة المال بالمعنى الأبجدي؟

إن الإنسان إذا جاع أو تعرّى أو بقي بالعراء لا يصبح أمام ناظريه إلا حاجاته التي بدونها لا تبقى له كينونة، فهل تحدّثه وهو يتضوّر جوعاً أو يرتجف أوصاله برداً، أو تتلظى كل خلية في جسده من شدة الحر. هل تحدثه عن قيم الوجود؟

أما المال الذي وصفه الله عز وجل بالزينة فإنه مال الكمال، وهو الزائد عن حاجة الإنسان الضرورية، وكلية المال لا تنصرف إلى هذا المعنى وإنما تبدأ من لقمة الغذاء، وخرقة الكساء وجرعة الدواء حتى تصل إلى زينة الحياة الدنيا.

والكليات التي أوجب علينا الإسلام حفظها ست، وبعضهم يجعلها خمساً فقط. ذلكم إن الاختلاف دار حول العرض بكسر العين

والنسب، فالذي أدمجها في كلية واحدة كان عدد الكليات عنده خمساً. والذي فصلهما عن بعضهما كان عددها عنده ستاً، والحق أنهما منفصلان وكلّ منهما يمثل كلية مستقلة عن الأخرى وذلك لأن النسب هو الارتباط الذي يكون بين الوالد وولده، فالمطلوب هو تحقيق اليقين في انحدار الابن من صلب الأب فلان دون سواه من الرجال، وفي تحقيق القطع بأن علاقة الأب فلان بأم الولد كانت علاقة شرعية حسب ما تقتضيه السنة النبوية والأحكام القرآنية.

أما العرض فإنه أشمل من النسب لأنه موضع المدح والذم من الإنسان وهو وصف اعتباري تقويه الأفعال الحميدة، وتزري به الأفعال القبيحة. فكل ما يقال عن الإنسان من منطلق أفعاله من مدح أو ذم يسمى عرضاً وبذلك يتناول النسب ويتجاوزه إلى غيره من الأفعال التي تصدر عن الناس.

والكليات الست إذن هي:

1 ـ **الدين**: وهو كما أشرت إلى ذلك فيما أسلفت: عقيدة وعمل أي إيمان وإسلام، إذ لا دين بلا إيمان، ولا دين إذا غاب الإسلام، حيث أن جدلية المقتضي والمقتضى تربط بينهما ربط الروح بالجسد، مما جعلهما بمقتضى هذه الجدلية حتمية لا تتخلف، شأن كل الثوابت، فلا يمكن أن يقال: لا بأس من غياب الإسلام إذا حضر الإيمان، ولا من غياب الإيمان إذا حضر الإسلام. إذ أن الجدلية كما نعلم تعني وجود شيئين أو أكثر تربطهما علاقة تحقق الوجود، الأمر الذي يجعل وجود

أحد الشيئين متوقفاً على وجود الشيء الآخر. وكلنا يعلم أن الإيمان محله القلب والإسلام أداته الجوارح. فالإنسان مؤمن بقلبه مسلم بجوارحه، ونظراً للعلاقة الجدلية القائمة بين الإيمان والإسلام أصبح الناس يطلقون أحد الإسمين على الاثنين معاً. فإذا قيل: إسلام قيل إيمان، وإذا قيل إيمان قيل إسلام، لأنه لا إسلام بدون إيمان، ولا إيمان بدون إسلام. والدين هو الإيمان والإسلام معاً. ولا دين إذا تخلف أحدهما، فالذين يدّعون الإيمان، ولا يكسبون في إيمانهم خيراً، لا ينفعهم إيمانهم بين يدي الله لأن إيمانهم زيف ونفاق. يقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: 158] والناتج العام الذي نستخلصه من هذه البنية العقيدية يتمثل في حتمية العمل على إقامة صرح التكامل بين العقيدة والعمل، إذ لا دين بدون ذلك. والمحافظة على الدين ليست إلا المحافظة على الإيمان القوي والإسلام النقي.

ومن البدهيات أن المحافظة على الدين تنصبّ في أوكد مطلوباتها على الشمول العقيدي والعملي، فلا دين مع التبعيض حتى لا يكون الإنسان من الذين آمنوا بالبعض وكفروا بالبعض الآخر، فمن بَعَّضَ أَخَلَّ بالبنية العامة، ومن أخلّ بالبنية أفسدها، ولا دين مع الإفساد، لذلك توجّب الحرص على عمق الإيمان واكتمال الاستجابة إلى مطلوبات الإسلام.

والمحافظة على الدين لها أبعاد ثلاثة هي:

1 ـ الالتزام الذاتي ببذل أقصى ما في الوسع لأعيش الدين فكراً ووجداناً وسلوكاً، أي تحقيقاً وتطبيقاً، حتى يكون الدين أنا وأكون أنا الدّين، بحيث أُصْبِحُ إسلاماً يتحرّك بين الناس بقيمه ومطلوباته.

2 ـ صيانة حوزته من كيد الأعداء، فكلّنا يعلم أن أعداء الإسلام لا يغمض لهم جفن ولا يهدأ لهم بال. ولا تطمئن لهم نفس ما دام الإسلام قائماً بين الأنام، وما دام المسلمون يركعون ويسجدون وبكتاب ربهم يتمسكون، لذلك تراهم طوال الدهر يشنون الحرب تلو الحرب علّهم يتمكنون من إطفاء شعلة الإسلام ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: 8]. من أجل ذلك لا بد أن يكون المسلمون مستعدّين للذود عن حمى دينهم بكل الأسلحة الملائمة، حتى يضمنوا لدينهم دوام البقاء منتصراً منتشراً غازياً متوسّعاً منيعاً مهيباً.

3 ـ الدعوة إلى الإسلام بكل الوسائل والإمكانات وعلى رأسها وسيلة الأسوة الحسنة والكلمة الطيبة عن طريق القلم واللسان، استجابة لأمر الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104].

2 ـ **الكلية الثانية النفس:** والمراد بالنفس هنا النفس البشرية بغضّ

النظر عن السن والعقل، وتخرج البهيمة فيتصرف الشخص فيها بالوجه الشرعي كالذّبح وغيره إن كانت له، فإن كانت لغيره فهي داخلة في المال.

وللنفس منزلة رفيعة عند الله لأنها نفخة من روح الله، لذلك أبقى أمرها سراً لا يعلمه أحد سواه. فقال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85] ولعلو مكانتها كان من قتل نفساً فكأنّما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً، والإنسان كله نفس لذلك يأخذ بعضه حكم كله لأن البعض ربما أدى إلى الكلّ.

ولحفظ النفس شرع الله عز وجل القصاص في النفس والطرف، فالنفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن. . . والمحافظة على النفس تقتضي الالتزام بتوفير كل ما أمكن من أسباب الحماية والصيانة للفرد خاصة وللأمة عامة.

3 ـ **الكلية الثالثة النسب**: وقد أسلفت أن النسب يتعلق بالارتباط الذي يكون بين الوالد وولده. بحيث تكون حلقة الأم في سلسلة النسب قائمة على أساس النكاح لا السفاح، وهذا أمر يتطلب تربية للجنسين لُحْمَتُها وَسُدَاها شريعة الله عز وجل، ويتطلب تنفيذ كل أحكام الشرع التي ما جاءت إلا لحفظ الأنساب. فالتبرج محظور على المرأة حتى لا تستفز وقاحة غرائز الرجال، والاختلاط غير الضروري محرّم حتى لا يحتك الرجال بالنساء احتكاكاً يفضي بهم إلى التآلف والتعارف ويمزق

حجب الحياء ويزيل حواجز الرهبة من الميل إلى الفحشاء.
والنظر إلى المرأة حرام إلا نظرة الفجأة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المرأة إذ لا يجوز لها أن تنظر إلى الرجل، لأن النَّظَرَ بَرِيدُ الزّنا، لذلك أمرنا الله عز وجل بغضّ البصر.

والزنا جريمة يعاقب عليها الشرع بجلد الزانية والزاني مائة جلدة إذا كانا أعزبين وبالرّجم إذا كانا محصنين. هذا كله من أجل المحافظة على كلية النسب.

4 ـ **الكلية الرابعة العقل**: ولحفظ العقل أوجب الله تعالى علينا التعلّم حتى تنمو عقولنا ويسمو تفكيرنا، وحرّم علينا كل المسكرات والمفتّرات لأن المسكرات تذهب العقول والمفترات تضعفها ومن ثم جاء حد شرب الخمر وجاءت الدية على من أذهب عقل غيره بجناية ارتكبها.

5 ـ **الكلية الخامسة العرض**: والعرض كما أسلفت موضع المدح والذم من الإنسان، تزينه وترفعه الأفعال الحميدة وتشينه وتحط من شأنه الأفعال القبيحة، ولحفظ العرض شرع الله عز وجل حد القذف للعفيف وشرع التعزير لغيره فيحد من قذف عفيفاً ويعزر من قذف غير عفيف.

6 ـ **الكلية السادسة المال**: والمراد به كل ما يحل تملكه شرعاً وإن قل، ولحفظ المال شرع الله تعالى حد السرقة فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [المائدة: 38].

وشرع حد قطع الطريق، ولقد أسلفت أن للمال أهمية قصوى في الإسلام، لأنه يمثل سبباً بارزاً من أسباب الحياة، إذ لا حياة بدون غذاء وكساء ومأوى، لذلك كان حفظه واجباً على الفرد خاصة وعلى الأمة عامة ولذلك وجب إقامة شرع الله وتنفيذ أحكام الله للمحافظة على المال الذي بدونه تتوقف عجلة الحياة عن الدوران.

هذا وإن إقامة شرع الله ليس أمراً متأكداً في مجال حفظ المال وحسب، وإنما هو متأكد في مجال حفظ الكليات الست، فإذا عشنا شريعتنا تحقيقاً وتطبيقاً سلمت كلياتنا وحفظت من كل سوء بإذن الله، وكلما أخللنا بشيء من الشريعة كلما ظهرت الثغرات وانكشفت العورات وطفت على السطح المشكلات، ومهما يقال عن وسائل الحفظ والصيانة غير الشرعية فإن الواقع المعيش قد أثبت فشلها في حفظ أية كلية من الكليات الست. لذلك لا بد من العودة إلى الأسباب التي شرعها خالق الأسباب لأنها وحدها الكفيلة بتحقيق المطلوب.

من غيبيات علم التوحيد

لقد أسلفت إن الإيمان بالله الواحد الذي لا شريك له يقتضي الإيمان بكل ما أخبرنا به هو ورسوله ﷺ، وليس لنا إلا أن نتأكد من أن هذا الخبر من عند الله ومن عند رسوله الكريم فإذا تأكدنا أصبح فرضنا التصديق والتسليم.

فعندما أخبرنا ربنا بأن كل واحد منا عليه من الملائكة حفظة وكتبة. أي ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار يحفظونه من المضار، وملائكة يتتبعون أعماله يكتبونها ويدونونها كما وقعت، بعضهم مكلف بتدوين الحسنات وبعضهم مكلف بتدوين السيئات وملك الحسنات أمير على ملك السيئات، فإذا فعل العبد حسنة بادر ملك الحسنات إلى كتبها وإذا فعل سيئة قال ملك اليسار أي ملك السيئات لملك اليمين أي ملك الحسنات أأكتب؟ فيقول: لا لعله يستغفر أو يتوب. فإذا مضى ست ساعات فلكية من غير توبة قال له: اكتب أراحنا الله منه. وهذه الكتابة وهذ الحفظ من الملائكة بإذن الله مما

يجب الإيمان به. ومنكر ذلك كافر لتكذيبه بالقرآن فقد قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: 11] وقال جل جلاله: ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۞ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار: 11 و12] وقال سبحانه: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: 18].

وما قيل عن الحفظ والكتابة يقال عن سؤال القبر ونعيمه وعذابه والآثار النبوية الواردة في هذا الموضوع أكثر من أن تحصى، وهي مبسوطة في كتب السنة ولا يستثنى من ذلك إلا من ورد الأثر بعدم سؤالهم كالأنبياء وكالصديقين والشهداء والمرابطين والملازمين لقراءة تبارك الملك كل ليلة من حين بلوغ الخبر لهم والمراد بالملازمة الاتيان بها في غالب الأوقات فلا يضر الترك مرة لعذر سواء قرأها عند النوم أو قبل ذلك وكذا من قرأ في مرض موته سورة: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وكذا الميت ليلة الجمعة أو يومها إلى غير ذلك وفي هذا خلاف والراجح أن غير الأنبياء وشهداء المعركة يسألون سؤالاً خفيفاً.

والإيمان بالبعث والحشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار وحوض نبينا محمد سيد الأبرار والعرش والكرسي واللوح المحفوظ والقلم وشفاعة سيدنا رسول الله ﷺ وإعادة الأجسام عند البعث بعد انعدامها أو بعد تفرقها، كل هذه القضايا التي وردت بشأنها نصوص ثابتة وصريحة في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ يجب على المؤمن أن يؤمن بها ويسلم بوقوعها دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن التفاصيل والجزئيات لأن ذلك كله لا يعلم علمه إلا

الله عز وجل. أما نحن فلا يمكن أن نعلم إلا الكليات العامة كما وردت بها آيات القرآن وأحاديث سيد الأنام ﷺ وكل من حاول التعسف مع نفسه والمجازفة بعقله وركوب متن خياله بالبحث عن التفاصيل والجزئيات كان مجافياً للحق. متجنياً على نفسه، مجترئاً على الغيب الذي لا نملك أية وسيلة لتمزيق حجبه واختراق ستاره وإني لأعجب من أمر من يرهق نفسه ويهدر وقته وجهده في طلب شيء لا يعود عليه بأي نفع إلا أن يرضي به فضوله. والغريب أن الذين تجدهم جادين في الجري وراء الغيبيات الإيمانية لتحويلها إلى معلومات حسية مادية لا تجد لهم جهوداً تذكر في مجالات البحوث العلمية الحياتية. فلا هم من المشاركين في تطوير الصناعات ولا هم من الرياديين في تعصير الفلاحات ولا هم من الطلائعيين في علوم الاجتماعيات. لذا نقول لهم: أليس من الأفضل أن تنصرفوا إلى ما ينفعكم في الحياة وبعد الممات. إن أمر الغيبيات منته بمجرد انتهائنا من البحث في موضوع الإيمان بالله. لأنها جميعاً من مقتضيات الإيمان وكل ما كان من مقتضيات الإيمان فهو من الإيمان. والإيمان كما عرفنا لا يناقش. والرأي عندي أن نوجه هِمَمَنَا إلى تعميق إيماننا وتقويم سلوكنا وإصلاح ذات بيننا. وتطوير مجتمعنا على أسس ثوابت ديننا، وتطوير بُنَانَا المادية على أسس علمية في إطار ثوابتنا الإيمانية وأن نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً وأن نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً. ولنا في جواب رسول الله ﷺ لرجل عن سؤال طرحه حول موعد الساعة عبرة بالغة. فقد جاء رجل إلى الرسول وهو في

مجلسه فقال له: يا رسول الله متى الساعة؟ فلم يلتفت إليه الرسول ولم يجبه إظهاراً لعدم رضائه عن هذا السؤال وعدم اهتمامه به. ثم أراد ﷺ أن يغتنم الفرصة ليلقن المسلمين إلى يوم الدين درساً لا ينسى. فقال: **«أين السائل عن الساعة؟»** فقال الرجل: أنا يا رسول الله. فقال ﷺ: **«وماذا أعددت لها؟»**.

أليس من الأفضل أن تستعد بالعمل الصالح لهذا اليوم الذي لا ريب فيه. أليس من الأفضل أن لا تنفق جهداً أو وقتاً في البحث عن موعدها ومكانها وتفاصيل الفصل بين الناس ومحاسبتهم إلى غير ذلك مما لا طائل من ورائه؟

وأخيراً فإن إنكار أي شيء من الغيبيات الإيمانية مما هو معلوم من الدين عن طريق الكتاب والسنة يؤدي إلى كفر صاحبه كفراً يبرر إقامة حد الكفر عليه. وهذا ما يدفعنا إلى تحصين أنفسنا وإخواننا عن طريق بث الوعي وإشاعة الفقه وتنوير العقول وترويج فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير حتى نتفادى مزالق الفساد والإفساد الناجمة عن ضعف العقيدة أو اهتزازها مما يؤدي إلى فساد المجتمع كله وضعفه واستسلامه إلى تيارات الاجتياح الأيديولوجي لا قدر الله.

وأخيراً أرجو أن لا أكون قد أطلت حتى لا أثقل على القارىء المستعجل، وقد قيل: لكن من التطويل كلت الهمم فصار الاختصار فيها ملتزم، وأن لا أكون قد أخللت بالبعض مما تناولت، ولا أشك في أن في عملي هنات، لأنه عمل بشر لا يخلو من الزلاّت، لذا

أطلب المعذرة وإقالة العثرات والتجاوز عن الهفوات، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ـ أسأله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

فقد أقدمت عليه وأنا أردد في سري: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تاليف: محمد الهادي زيّان

خرّيج الجامعة الزيتونية
ومتفقد التعليم الابتدائي
بالمدارس التونسية

الفهرس

